

قَوْلُكَ النَّعَامُ بِمَا مَعَ الْخَلْقِ

فِي آيَاتِهَا جَامِعَةٌ

دِرَاسَةٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ

عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾

سورة الأعراف ١٩٩

رَاجِعُهَا وَقَدَّمَ لَهَا فَضِيلَةَ الشَّيْخِ

أَبِي عَبْدِ اللَّهِ

فِيصَلْ بِن عَبْدِهِ بِن قَائِدِ الْحَاوِي

كَتَبَهَا

أَبُو عَمْرَانَ عَاصِمُ بْنُ أَحْمَدَ الْبَيْطَارُ الْعُثْمِي

كَتَبَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ

لِلطَّبَاعَةِ وَالنَّشْرِ وَالنَّوْبِ

الْيَمَنُ - عَدَنُ

قَوَاعِدُ النِّعَامِ مَعَ الْخَلْقِ فِي آيَةِ جَامِعَةٍ

دراسة في قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾

[الأعراف: ١٩٩]

راجعها وقدم لها فضيلة الشيخ

أبي عبد الله فيصل بن عبده قائد الحاشدي

كَتَبَهُ

أبو عمران عاصم بن أحمد البيطار العُتَمِيّ

عدن - الشيخ عثمان جولة القاهرة - خلف فندق الريان
+٩٦٧ ٧٣٦٩٠١٨٢٤ - +٩٦٧ ٧٧٤٤٢٧٥٧٢
عدن - الشيخ عثمان جولة القاهرة - خلف محطة النهدى
+٩٦٧ ٧٧٧٠٠١٢٥٢٢
عمر موت العاصي - جوار مسجد أبو - الشارع الشرقي من النادي
+٩٦٧ ٧٧٧٣٤٩٥٤٣ - +٩٦٧ ٥٣٤١٥٩٨
عمر موت سبيل كحوج - مقابل مسجد إبراهيم - مدرسة كحوج للبنين
+٩٦٧ ٧٨٣٤٤٦٥١٣
alshafibooks@gmail.com

دار الإمام الشافعي
للطباعة والنشر والتوزيع
المن - عدن

A decorative rectangular border composed of intricate black floral and scrollwork patterns, framing the central text.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم فضيلة الشيخ أبي عبد الله فيصل بن عبده قائد الحاشدي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فقد اطلعتُ على رسالة أخي المفضل، الأديب عاصم البيطار، الموسومة بـ «قواعد التعامل مع الخلق في آية جامعة».

فرايته - أحسن الله إليه - قد وقفَ عند آية جليّة جمعت أصول الأخلاق، ومدار التعامل، وميزان السلوك.

فأحسنَ عرضها، واستخلصَ معناها، وجمع أقوال الأئمة في تفسيرها بعبارة محكمة، وجيزة، نافعة.

وجاءت رسالته صغيرة في حجمها، كبيرة في أثرها، رقيقة في مبناها، راسخة في معناها.

تسري في النفس كما يسري ضوء الفجر في أطراف الليل: هادئة، ولكنها مبصرة، تُنيرُ العقل، وتُنشئ القلب.

نفع الله به، وكتب لرسالته هذه وجميع رسائله القبول.

جرى القلم بما تقدّم،

وكتبه: **فيصل الحاشدي**

مكة المكرمة، ١ جمادى آخر ١٤٤٧ هـ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، الذي خلق الخلق لحكمة بالغة، وجعل غاية وجودهم تحقيق عبادته وحده لا شريك له، وأتمَّ عليهم النعمة بإكمال الدين، وإتمام المنة، واصطفاه نبيه محمد ﷺ ليكون هاديًا ومبشرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة تُنيرُ الظلمات، وتثبت القلب على صراطه المستقيم، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، المبعوث رحمةً للعالمين، وقدوةً في مكارم الأخلاق، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى أثره إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإنَّ الأخلاق في الإسلام ليست مبحثًا ثانويًا، ولا فضيلةً تزيّن ظاهر الإنسان فحسب؛ بل هي ثمرةٌ من ثمار العقيدة الصحيحة، ولوازمُ التوحيد، وآثارُ الإيمان، إذ لا يتحقّق حسنُ الخلق إلا لمن حُسِنَ باطنه، وسَلِمَت عقيدته، واستقام قلبه على توحيد الله، مؤمنًا بأسمائه وصفاته، راضيًا بحكمه وقضائه وقدره.

وقد دلت نصوص الكتاب والسنة على أن الأخلاق الفاضلة من دلائل الإيمان، وأن سوء الخلق من علامات نقصه وضعف أثر التوحيد في القلب؛ لأن الأخلاق إنما تنبع من قلبٍ مُعَظَّمٍ لربه، ممتلئٍ بمعرفة الله ومحبه وخشيته، منقادٍ لشرعه، مستسلمٍ لأمره.

ولمّا كانت آيةٌ واحدةٌ من كتاب الله قد جمعت أصول التعامل مع الخلق، ورسمت منهج المسلم في تهذيب النفس والإحسان إلى الناس، وهي قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، كان من المناسب أن تُجعل محورًا لهذه الرسالة؛ إذ اشتملت على قواعد جامعة، وضوابط نافعة، تجمع

بين تزكية النفس، وحسن المعاملة، وكمال الأدب، وما ينبغي أن يكون عليه المؤمن في مختلف أحواله.

وقد حرصتُ في هذه الرسالة على بيان تلك القواعد، وشرح معانيها، وذكر ما دلت عليه من الآداب الشرعية ومحاسن الأخلاق، وربطها بمنهج السلف الصالح، وبيان أثرها في سلوك المسلم وتعاملاته، وكيف تُسهم في تهذيب قلبه، وتقويم جوارحه، وإصلاح مجتمعه؛ فإن الأخلاق في هذا الدين ليست قواعد اجتماعية فحسب، بل هي مرآة العقيدة، وثمررة العبادة، ودليل صدق الإيمان، ولا تنضج الأخلاق إلا في قلبٍ استنار بنور التوحيد والإيمان.

ولا يفوتني في هذا المقام أن أرفع شكري وتقديري لمشايخي الكرام الذين كان لهم - بعد فضل الله - أثرٌ بيّن في تعليمي وتوجيهي، وعلى رأسهم شيخنا العلامة المربي يحيى بن علي الحجوري - حفظه الله - الذي تعلمت منه العلم والمنهج وحسن الأدب.

كما أتوجه بالشكر الجزيل لشيخنا الفاضل فيصل الحاشدي - وفقه الله - على ما تفضل به من مراجعة هذه الرسالة وتقديمها، وما بذله من وقت وجهد رغم انشغاله بالعلم والتعليم، فجزاه الله خيرًا وبارك في علمه وعمله.

أسأل الله الكريم بمنّه وفضله أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه، نافعًا لکاتبه وقارئه، وأن يرزقنا جميعًا حسن الخلق، ولين الجانب، والرفق بالخلق، والحكمة في القول والعمل، وأن يرفع به الدرجات، ويكفر به السيئات، إنه جواد كريم.

كتبه

أبو عمران عاصم البيطار العتمي

في يوم: الجمعة ٢ جمادى الثاني ١٤٤٧ هـ

بمحل الإقامة بالرياض حرسها الله

أهمية الأخلاق في الإسلام

لقد بُني هذا الدين على أساسٍ متينٍ من القيم والمكارم التي تزكّي النفوس وتُصلح المجتمعات، فجعل الأخلاق الحسنة لبَّ الإيمان وروحه، وجعل صلاح الأمة مرتبطاً بصلاح سلوك أفرادها كما قال النبي ﷺ: «إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق».^(١)

فغاية الرسالة إذن إصلاح القلوب وتهذيب الطباع وربط المعاملة مع الناس بالله تعالى، حتى تكون الأخلاق عبادةً وقربةً لا مجرد عادةً اجتماعية. وما من خلقٍ كريمٍ إلا دلَّ عليه الإسلام، وما من رذيلةٍ إلا حذَّر منها، حتى غدت الأخلاق الصالحة ميزان الإيمان، قال ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً».^(٢) فالأخلاق في الإسلام ليست زينة تُضاف إلى الإيمان، بل هي جزء لا يتجزأ من صميمه، وروحٌ تُغذي جوهر الدين وتعبّر عن حقيقته في واقع الحياة. فالإسلام لم يأت ليُصلح الظاهر فحسب، بل جاء ليزكّي الباطن، ويهذب النفوس، ويغرس في القلوب معاني الرحمة والصدق والأمانة والعفو. ولذلك كانت الأخلاق غاية من غايات الرسالة المحمدية، كما قال النبي ﷺ: «إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

بل جعل النبي ﷺ ميزان التفاضل بين الناس بحُسن أخلاقهم، فقال: «إن من

(١) صحيح: رواه البيهقي (٢١٣٠١) واللفظ له، وأخرجه أحمد (٨٩٥٢)، الحاكم (٤٢٢١) باختلاف يسير من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. قال الهيثمي، في مجمع الزوائد (١٨/٩)، رجاله رجال الصحيح غير محمد بن رزق الله الكلؤاني وهو ثقة. والحديث في السلسلة الصحيحة (٤٥)

(٢) صحيح: رواه ابن حبان (٤٧٩) وأبو داود (٤٦٨٢)، والترمذي (١١٦٢)، وأحمد (٧٤٠٢) مطولاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وصححه العراقي كما في فيض القدير (٩٧ / ٢) والألباني في صحيح الجامع (١٢٣٠)

أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً». (١)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً». (٢)

فهذه النصوص تؤكد أن الأخلاق ليست مجرد معاملة حسنة، بل مقياس الإيمان وعلو المنزلة عند الله.

وقد تجلّت الأخلاق في سيرة النبي ﷺ أروع تجلٍّ، حتى شهد له ربه جلّ وعلا بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] أي إنك يا محمد على دين عظيم، وهو الإسلام، وما يأمرك به من مكارم الأخلاق وجميل الصفات.

ومن تأمل في سيرته ﷺ، علم أن أخلاقه ليست مواقف جزئية، بل منهج شامل في الحياة، يجمع بين العفو عند المقدرة، واللين في الدعوة، والحلم عند الجهل، والعدل في الحكم، والرحمة في المعاملة.

ولذلك كانت الأخلاق الحسنة سبيلاً إلى محبة الله والقبول عند الناس. قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].
فهذه الآية تربي المسلم على مقابلة الإساءة بالإحسان، والكراهية بالعفو، لتتحول العداوة إلى مودة.

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٠١٨)، وأحمد (١٧٧٣٢)، وابن حبان (٥٥٥٧) والترمذي (٢٠١٨) والطبراني في «مكارم الأخلاق» (٦)، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» (٢٤)، وابن المقرئ في «معجمه» (٤١٩) بالفاظ متقاربة من حديث جابر ابن عبد الله رضي الله عنه. وصححه البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة (١١/٦) وابن باز كما في مجموع الشروح الفقهية. (٣٠/٢٥٩) والألباني في صحيح الترغيب (٢٦٤٩) وصحيح الترمذي (٢٠١٨)

(٢) صحيح: رواه ابن حبان (٤٧٩) أخرجه وأبو داود (٤٦٨٢) والترمذي (١١٦٢)، وأحمد (٧٤٠٢) مطولاً. وصححه العراقي كما في فيض القدير (٩٧/٢) والألباني، صحيح الجامع (١٢٣٠) وجاء من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه. أخرجه البزار كما في «كشف الأستار» (٣٤) واللفظ له، وابن أبي شيبة (٣١٠٣٢) وصححه ابن حجر العسقلاني في مختصر زوائد البزار (٧٦/١)

والأخلاق في الإسلام ليست مقصورة على علاقة الإنسان بغيره، بل تشمل علاقته بربه أولاً، ثم بنفسه ثانياً، ثم بالخلق ثالثاً.

فحسن الخلق مع الله هو بتحقيق توحيده وبالرضا بقضائه، وحسن الظن به، وطاعته في أمره ونهيه. وحسن الخلق مع النفس هو تركيتها، ومنعها من الهوى والشر. وأما حسن الخلق مع الناس فهو لين الجانب، والرحمة، والعدل، والعفو، والرفق، والوفاء بالعهود.

إن الأخلاق الحسنة هي التي تبني المجتمع المسلم وتجمع كلمته، وتشيع فيه الأمن والثقة والرحمة.

وحين تسود الأخلاق، تزول الأحقاد، وتُصان الحقوق، وتُحفظ الكرامات. أما إذا ضاعت الأخلاق، فإن المظاهر لا تنفع، والعبادات تفقد ثمرتها، كما قال النبي ﷺ عن امرأة كانت تكثر من الصلاة والصوم ولكنها تؤذي جيرانها، فقال: «هي في النار».^(١)

وفي واقعنا المعاصر، نحن أحوج ما نكون إلى استحضار هذه القيم في حياتنا اليومية:

في تعاملنا داخل الأسرة، وفي بيئة العمل، وفي وسائل التواصل الاجتماعي، حيث صار اللسان والكتابة أداة للإيذاء أو الإصلاح. فالمسلم الحق هو من يراقب الله في كلمته وسلوكه، فينشر الطيبة والرفق بدل الجفاء والخصام، ويجعل من أخلاقه دعوة صامته إلى دينه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: الدين كله خُلُق، فمن زاد عليك في الخُلُق زاد عليك في الدين.^(٢)

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٩٦٧٥)، والبزار (٩٧١٣)، وابن حبان (٥٧٦٤) والبخاري في «الأدب المفرد» (١١٩) باختلاف يسير. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧١ / ٨): رجاله ثقات. وصححه البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة (٥ / ٤٩٠) والألباني في السلسلة الصحيحة (١٩٠).

(٢) مدارج السالكين (٣ / ٣٠)

فليكن خلقنا انعكاسًا لإيماننا، وسلوكنا ترجمةً لما نقرأ ونتعلم، ولنجعل
 من أخلاقنا وسيلةً لعمارة الأرض بالخير، وإرضاء الله في السرّ والعلن، حتى
 نُبعث يوم القيامة في صحبة من قال فيهم ربنا: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ
 كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤].



الفصل الأول

أقوال العلماء في الآية ومعناها الجامع

تُعَدُّ هذه الآية من أعظم ما نزل في باب الأخلاق والمعاملات، حتى قال العلماء ليس في القرآن آيةٌ أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية. وقد وقف المفسرون قديماً وحديثاً أمامها بإجلال، لما حوته من أصولٍ ثلاث تجمع بين التزكية الفردية والإصلاح الاجتماعي.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: هذه الآية فيها جماع الأخلاق الكريمة. ^(١)

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: وقد جمع الله له - أي للنبي ﷺ - مكارم الأخلاق في قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] قال جعفر بن محمد: أمر الله نبيه ﷺ بمكارم الأخلاق. وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية ^(٢) . ^(٣)

وقال رَحِمَهُ اللهُ: جمع له في هذه الآية مكارم الأخلاق والشميم كلها. ^(٤)

وقال رَحِمَهُ اللهُ: فلو أخذ الناس كلهم بهذه الآية لكفتهم وشفتهم. ^(٥)

وقال السعدي رَحِمَهُ اللهُ: هذه الآية جامعة لحسن الخلق مع الناس، وما ينبغي في

(١) مجموع الفتاوى (٣٠ / ٣٧٠)

(٢) ذكره جماعة من المفسرين بدون سند.

(٣) مدارج السالكين (٢ / ٢٩٠)

(٤) زاد المعاد ٣ / ١٤٦

(٥) الرسالة التبوكية (ص ٧٥)

معاملتهم. (١)

وقال ابن العربي رَحِمَهُ اللهُ: قال علماؤنا: هذه الآية من ثلاث كلمات، قد تضمنت قواعد الشريعة المأمورات والمنهيات، حتى لم يبق فيه حسنة إلا أوضحتها، ولا فضيلة إلا شرحتها، ولا أكرومة إلا افتتحتها، وأخذت الكلمات الثلاث أقسام الإسلام الثلاثة.

فقوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] تولى بالبيان جانب اللين، ونفي الحرج في الأخذ والإعطاء والتكليف.

وقوله: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ [الأعراف: ١٩٩] تناول جميع المأمورات والمنهيات؛ وإنهما ما عرف حكمه، واستقر في الشريعة موضعه، واتفقت القلوب على علمه.

وقوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] تناول جانب الصفح بالصبر الذي به يتأتى للعبد كل مراد في نفسه وغيره، ولو شرحنا ذلك على التفصيل لكان أسفارا. (٢)

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: هذه الآية من ثلاث كلمات، تضمنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات. فقوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ دخل فيه صلة القاطعين، والعفو عن المذنبين، والرفق بالمؤمنين، وغير ذلك من أخلاق المطيعين ودخل في قوله: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ صلة الأرحام، وتقوى الله في الحلال والحرام، وغض الأبصار، والاستعداد لدار القرار. وفي قوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ الحض على التعلق بالعلم، والإعراض عن أهل الظلم، والتنزه عن منازعة السفهاء، ومساواة الجهلة الأغبياء، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة والأفعال الرشيدة. (٣)

(١) تفسير السعدي (٣١٣)

(٢) أحكام القرآن لابن العربي (٢/ ٣٦٣)

(٣) تفسير القرطبي = الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٣٤٤)

وقال الباجي رَحِمَهُ اللهُ: تضمنت هذه الآية من حسن الأخلاق ما لا يستطيع امتثاله إلا من وفقه الله عز وجل فكيف سائر ما تضمنه القرآن وسنة النبي عليه السلام. ^(١)

وقال ابن قتيبة رَحِمَهُ اللهُ في مقدمة تأويل مشكل القرآن وهو يصف القرآن الكريم: وجمع الكثير من معانيه في القليل من لفظه، وذلك معنى قول رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم: أوتيت جوامع الكلم ^(٢). فإن شئت أن تعرف ذلك فتدبر قوله سبحانه: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] كيف جمع له بهذا الكلام كل خلق عظيم، لأن في (أخذ العفو): صلة القاطعين، والصفح عن الظالمين، وإعطاء المانعين. وفي (الأمر بالعرف): تقوى الله وصلة الأرحام، وصون اللسان عن الكذب، وغيض الطرف عن الحرمات. وإنما سمي هذا وما أشبهه (عرفا) و(معروفا)، لأن كل نفس تعرفه، وكل قلب يطمئن إليه. وفي (الإعراض عن الجاهلين): الصبر، والحلم، وتنزيه النفس عن مماراة السفیه، ومنازعة اللجوج. ^(٣)

وقال ابن عبد ربه الأندلسي رَحِمَهُ اللهُ: وقد جمع الله تبارك وتعالى لنبيه ﷺ جوامع الكلم في كتابه المحكم، ونظم له مكارم الأخلاق كلها في ثلاث كلمات، فقال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. ^(٤)

وقال الكرمانی رَحِمَهُ اللهُ: وحسن الخلق اختيار الفضائل منه وترك الرذائل وأمهاته داخله تحت قوله تعالى ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وهو صفة الأنبياء والأولياء. ^(٥)

(١) المنتقى شرح الموطأ (٧/ ٢١٣)

(٢) أخرجه بهذا اللفظ مسلم (٥٢٣) وأخرجه البخاري (٦٦١١) بلفظ بعثت بجوامع الكلم. وهو من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) تأويل مشكل القرآن (ص ١١)

(٤) العقد الفريد (٢/ ٢٥٥)

(٥) الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري (١٤/ ١٤٤)

وقال الفيروز آبادي رَحِمَهُ اللهُ: ومن جوامع آيات القرآن قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] فإنها جامعة لجميع مكارم الأخلاق. (١)

فيتبين من مجموع هذه الأقوال أن العلماء أجمعوا على أن الآية أصل في تهذيب النفس وضبط السلوك، فهي تضع للمؤمن منهجاً ربانياً متوازناً في التعامل مع الخلق

فالعفو: يضبط جانب الانفعال والعلاقة مع المسيء

والأمر بالعرف: يضبط جانب المبادرة والإحسان

والإعراض عن الجاهلين: يضبط جانب الحلم والصبر على الأذى

فمن جمع هذه الثلاث فقد استكمل حُسن الخلق الذي هو أثقل ما يوضع في ميزان العبد يوم القيامة.



هل الآية منسوخة أم محكمة

اعلم - وفقك الله - أن بعض أهل العلم ذهب إلى أن بداية الآية ونهايتها منسوخ، ووسطها محكم.

قال ابن حزم رَحِمَهُ اللهُ: وهذه الآية من عجيب المنسوخ، لأن أولها منسوخ، وآخرها منسوخ، وأوسطها محكم؛ قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ يعني الفضل من أموالهم والأمر بالمعروف محكم وتفسيره معروف وقوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ منسوخ بآية السيف. ^(١)

وذهب أكثر أهل العلم إلى أنها محكمة، لا نسخ فيها.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ: فإن قال قائل: أفمنسوخ ذلك؟ قيل: لا دلالة عندنا على أنه منسوخ؛ إذ كان جائزاً أن يكون، وإن كان الله أنزله على نبيه ﷺ في تعريفه عشرة من لم يؤمر بقتاله من المشركين، مراداً به تأديب نبي الله والمسلمين جميعاً في عشرة الناس وأمرهم بأخذ عفو أخلاقهم، فيكون وإن كان من أجلهم نزل تعليماً من الله خلقه صفة عشرة بعضهم بعضاً، لم يجب استعمال الغلظة والشدّة في بعضهم، فإذا وجب استعمال ذلك فيهم استعمال الواجب، فيكون قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ أمراً بأخذه ما لم يجب غير العفو، فإذا وجب غيره أخذ الواجب وغير الواجب إذا أمكن ذلك، فلا يحكم على الآية بأنها منسوخة لما قد بينا ذلك في نظائره في غير موضع من كتبنا. ^(٢)

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: وهذه الآية عند الأكثرين كلها محكمة، وعند بعضهم أن وسطها محكم وطرفيها منسوخان على ما بينا. ^(٣)

(١) الناسخ والمنسوخ لابن حزم (ص ٣٨)

(٢) تفسير الطبري (١٠ / ٦٤٣)

(٣) زاد المسير في علم التفسير (٢ / ١٨١)

وقال رحمه الله: الآية محكمة، وهو الصحيح. (١)

وقال السخاوي رحمه الله: قالوا: هي من أعجب الآيات، أولها منسوخ وآخرها منسوخ وأوسطها محكم. قالوا: قوله عز وجل: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ منسوخ بالزكاة. وقال ابن زيد: منسوخ بآية السيف بالأمر بالغلظة والقتال. اهـ والصحيح أنها محكمة. (٢)

وقال القرطبي رحمه الله: قلت: فاستعمال عمر رضي الله عنه لهذه الآية واستدلال الحر بها يدل على أنها محكمة لا منسوخة. (٣)

وقال أبو حيان الأندلسي رحمه الله: والذي يظهر: القول الأول، من أنه أمرٌ بمكارم الأخلاق، وأن ذلك حكمٌ مستمرٌّ في الناس، ليس بمنسوخ. ويدلُّ عليه حديثُ الحرِّ بن قيس، حين أدخل عيينة بن حصنٍ على عمر، فكلم عمرَ كلامًا فيه غلظةٌ، فأراد عمرُ أن يهَمَّ به، فتلا الحرُّ هذه الآية على عمر، فقرَّرها، ووقف عندها. (٤)



(١) نواسخ القرآن (ص ١٤٦)

(٢) جمال القراء وكمال الإقراء (٢ / ٧٠٧)

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٧ / ٣٤٧)

(٤) البحر المحيط في التفسير (٥ / ٢٥٦)

الفصل الثاني

ما ذُكر في سبب نزول هذه الآية وما ورد فيها

نزلت هذه الآية الكريمة في مرحلةٍ من مراحل الدعوة التي واجه فيها النبي ﷺ أذىً شديداً من قومه، فجاءه الأمر الإلهي بتربيةٍ ربانيةٍ سامية، تُعلِّمه كيف يتعامل مع الناس في حال اللين والغلظة، وفي وقت الدعوة والجدال.

لقد نزلت الآية تربيةً للنبي ﷺ ولأمته من بعده، ليكون التعامل مع الخلق قائماً على

ثلاثة أركان:

العفو عند الخطأ: فلا يُقابل السيئة بمثلهما، بل بالصفح الجميل.

الأمر بالعرف: فلا يترك الدعوة إلى الخير مهما واجه من جفاء.

الإعراض عن الجاهلين: فلا يرد على السفه بالسفه، بل بالحلم والعقل.

وهكذا يُربِّي القرآن الداعية على أن يكون مربياً بالحلم، وأن يتحلى بحكمةٍ تُطفئ نيران الجهل، وتزرع بذور الخير في القلوب.

عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه قال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ [الأعراف: ١٩٩] قال: ما أنزل الله إلا في أخلاق الناس. ^(١)

وفي لفظ: أمر الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يأخذ العفو من أخلاق الناس. ^(٢)

(١) أخرجه البخاري (٤٦٤٣)

(٢) صحيح: رواه البخاري معلقاً (٤٦٤٤) بصيغة الجزم. ورواه أبو داود (٤٧٨٧) والنسائي في الكبرى (١١١٣١) وصححه الألباني، في صحيح أبي داود (٤٧٨٧)

وعن وهب بن كيسان قال: سمعت عبد الله بن الزبير يقول: على ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] قال: والله ما أمر بها أن تؤخذ إلا من أخلاق الناس، والله لا أخذنها منهم ما صحبتهم. ^(١)

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم عيينة بن حصن بن حذيفة، فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس، وكان من النفر الذين يدينهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته، كهولا كانوا أو شبابا، فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي، لك وجه عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه، قال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عباس: فاستأذن الحر لعيينة، فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال: هي يا ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل. فغضب عمر حتى هم به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾. وإن هذا من الجاهلين. والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافا عند كتاب الله. ^(٢)

وعن قيس بن سعد بن عبادة من طريق العلاء بن بدر - قال: لَمَّا نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى حُمَزة بن عبد المطلب قال: «والله، لَأُمَثِّلَنَّ بِسَبْعِينَ مِنْهُمْ». فجاءه جبريل بهذه الآية: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] فقال: «يا جبريل، ما هذا؟». قال: لا أدري. ثم عاد، فقال: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ، وَتَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ. ^(٣)

(١) صحيح: رواه البخاري في الأدب المفرد (٢٤٤) وابن أبي حاتم في تفسيره (٨٦٧٤) وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد: (١٨٣)

(٢) رواه البخاري (٤٣٦٦)

(٣) ضعيف: أخرجه أبو نعيم في معرفة الصحابة ٤ / ٢٣١٠ (٥٦٩٧)، وابن مردويه - كما في تخريج الكشاف ١ / ٤٧٧ من طريق محمد بن يونس، ثنا عبد الله بن داود الخريبي، ثنا عبادة بن مسلم، عن العلاء بن بدر، عن قيس بن سعد بن عبادة به.

والعلاء بن بدر، هو العلاء بن عبد الله بن بدر البصري، ينسب لجدّه، وهو ثقة، لكن لم يثبت له لقاء أحد من الصحابة، فالسند منقطع. انظر: تهذيب الكمال (٢٢ / ٥١٥)، والتقريب ص (٤٣٥). وفيه

وعن أمي المرادي، قال: بلغني أنه لما ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، قال رسول الله ﷺ لجبريل: «ما هذا؟»، قال: «لا أدري حتى أسأل العالم»، قال: فأتاه جبريل، فقال: «يا محمد إن الله تبارك وتعالى يأمرك أن تعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك»^(١)

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] قال النبي ﷺ: «يا جبريل ما تأويل هذه الآية؟» قال: حتى أسأل. فصعد ثم نزل فقال: يا محمد إن الله يأمرك أن تصفح عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك. فقال النبي ﷺ: «ألا أدلكم على أشرف أخلاق الدنيا والآخرة؟» قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «تعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك»^(٢).

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مكارم الأخلاق عند الله أن تعفو عمن ظلمك، وتصل من قطعك، وتعطي من حرمك». ثم تلا النبي ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].^(٣)

محمد بن يونس، وهو: الكديمي، ضعيف،

قال عنه ابن حجر في التقريب (٦٤١٩): ضعيف. بل قد اتهم بالكذب كما في ترجمته في سير أعلام النبلاء (٣٠٢ / ١٣).

(١) معضل: رواه عبد الرزاق في تفسيره (٩٧٤) والطبري في التفسير (١٥٥٤٨) وابن أبي حاتم (٨٦٨٢) كلهم من طريق أمي بن ربيعة المرادي الصيرفي وثقه سفيان بن عيينة، وأحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وابن حجر، وغيرهم. وهو من طبقة كبار أتباع التابعين، كمالك والثوري. ينظر: تهذيب الكمال (٣ / ٣٢٨)، والتقريب ص (١١٤).

(٢) ضعيف جداً: أخرجه ابن مردويه كما في تخريج الكشاف (٤٧٧ / ١) والدر المنثور (٣ / ٦٢٨) وهو من طريق إبراهيم بن محمد المدني ويعرف بإبراهيم ابن أبي يحيى متروك الحديث. انظر: ذخيرة الحفاظ (٣ / ١٤٧٠) وميزان الاعتدال (١ / ٥٧)

(٣) ضعيف جداً: عزاه السيوطي في الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٣ / ٦٣٠) إلى ابن مردويه. وأخرجه ابن عدي في الكامل ٧ / ٢٨ (١٤٨٩)، والخطيب في تاريخ بغداد (١ / ٣٢٩) دون ذكر الآية. قال ابن

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن الله أدبني فأحسن تأديبي، ثم أمرني بمكارم الأخلاق، فقال: خُذِ الْعَفْوَ، وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ، وَاعْزِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ»^(١).



القيسрани في ذخيرة الحفاظ ٢ / ٨٥٠ (١٦٩٤): رواه عبد الحكيم بن عبد الله القسمللي عن أنس، وعبد الحكيم منكر الحديث. وقال الذهبي في ميزان الاعتدال (٢ / ٥٣٦): عبد الحكم القسمللي ضعيف. وانظر موسوعة التفسير المأثور (٩ / ٥٥٥) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٢٥٨٦) (١) **ضعيف**: أخرجه السمعاني في أدب الإملاء والاستملاء (ص ١) وأبو القاسم الجرجاني في «تاريخ جرجان» (ص ١٨٨) بنحوه

قال السخاوي رحمه الله: سنده منقطع وفيه من لم أعرفه. المقاصد الحسنة (ص ٧٣) وقال كما في الأجوبة المرضية فيما سئل السخاوي عنه من الأحاديث النبوية (١ / ٢٤٧): وبالجملية فهو كما قال ابن تيمية: لا يعرف له إسناد ثابت. والعلم عند الله تعالى. وقال ابن تيمية رحمه الله: المعنى صحيح لكن لا يعرف له إسناد ثابت.. مجموع الفتاوى (١٨ / ٣٧٥)

الفصل الثالث

معنى قوله تعالى ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾

العفو في اللغة مأخوذ من مادة (عفا - يعفو)، وهي تدور على معنيين أصليين:
الأول: الترك والمسامحة، ومنه قولهم: عفا الله عنك أي تجاوز عن ذنبك.
والثاني: الزيادة والفضل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾
 [البقرة: ٢١٩] أي ما زاد عن الحاجة.
 فالعفو إذاً يجمع بين **المسامحة** و**السماحة**؛ مسامحة في الحقوق، وسماحة في المعاملة.

وقد اختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: خذ العفو.
فقال بعضهم: معنى ذلك الصفح عن إساءة المسيء، والإعراض والتجاوز عن ذلك، بحيث لا يقف عند الإساءة.^(١)
وقال بعضهم: "ما عفا" أي: زاد فيما يتصل بأموال الناس، بحيث يتصدق بما زاد عن حاجته وحاجة أهله. وهذا كان في أول الإسلام، حينما كان الناس في شدة وضيق، فقد قال بعض أهل العلم: لا يجوز للإنسان أن يدخر شيئاً.^(٢)
وقال بعضهم: إن المراد بـ "خذ العفو" أي: من أخلاق الناس، فيكون المعنى: لا تستقص الناس في معاشرتهم ومخالطتهم، وتطلب حقك منهم، فلا تطالبهم بكل حقوقك، وتصدق معهم في هذا. وهذا ما فسره ابن الزبير رضي الله عنه ففي البخاري عن عبد

(١) انظر تفسير ابن عاشور التحرير والتنوير (٩ / ٢٢٥) وما بعدها

(٢) انظر فتح البيان في مقاصد القرآن (٥ / ١٠٨)

الله بن الزبير، ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ قَالَ: مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَّا فِي أَخْلَاقِ النَّاسِ.

وفي رواية: قال: أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يَأْخُذَ الْعَفْوَ مِنْ أَخْلَاقِ النَّاسِ. ^(١)

وفي الادب المفرد عن وهب بن كيسان قال: سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ يَقُولُ عَلَى الْمِنْبَرِ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] قَالَ: وَاللَّهِ مَا أَمَرَ بِهَا أَنْ تُؤْخَذَ إِلَّا مِنْ أَخْلَاقِ النَّاسِ، وَاللَّهُ لَا خُذْنَهَا مِنْهُمْ مَا صَبَحْتَهُمْ. ^(٢)

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال: خذ العفو من أخلاق الناس، واترك الغلظة عليهم. اهـ. ^(٣)

وقال الواحدي رَحِمَهُ اللَّهُ: والمعنى: اقبل الميسور من أخلاق الناس، ولا تستقص عليهم فيتولد منه البغضاء. ^(٤)

وقال ابن الأثير رَحِمَهُ اللَّهُ: (العفو) هاهنا: السهل الميسر، وقد أمر الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ أَخْلَاقِ النَّاسِ وَيَقْبَلَ مِنْهَا مَا سَهْلٌ وَتَيْسَرٌ، وَلَا يَسْتَقْصِيَ عَلَيْهِمْ. ^(٥)

وقال النسفي رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ هو ضد الجهد أي ما عفا لكم من أخلاق الناس وأفعالهم ولا تطلب منهم الجهد وما يشق عليهم حتى لا ينفروا كقوله عليه السلام: يسروا ولا تعسروا. ^(٦) ^(٧)

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ: بين في هذه الآية الكريمة ما ينبغي أن يعامل به الجهلة من

(١) رواه البخاري (٤٦٤٣)

(٢) صحيح: كما قال الألباني في صحيح الأدب المفرد (١٨٣) وانظر تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٣٤٤)

(٣) تفسير الطبري (١٣/ ٣٢٩)

(٤) التفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٤٣٧)

(٥) جامع الأصول (٢/ ١٤٤)

(٦) أخرجه البخاري (٦١٢٥) ومسلم (١٧٣٤) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٧) تفسير النسفي (١/ ٦٢٦)

شياطين الإنس والجن، فبين أن شيطان الإنس يعامل باللين، وأخذ العفو، والإعراض عن جهله وإساءته. ^(١)

وقال: فعلى هذا ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ ما تسهّل لك من أخلاق الناس ووجدت منهم طيباً بلا كلفة فخذ، وما جاءك من غير ذلك فاصفح عنه وتجاوزّه، كما قال: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾. ^(٢)

وقال السعدي رَحِمَهُ اللهُ: هذه الآية جامعة لحسن الخلق مع الناس، وما ينبغي في معاملتهم، فالذي ينبغي أن يعامل به الناس، أن يأخذ العفو، أي: ما سمحت به أنفسهم، وما سهل عليهم من الأعمال والأخلاق، فلا يكلفهم ما لا تسمح به طبائعهم، بل يشكر من كل أحد ما قابله به، من قول وفعل جميل أو ما هو دون ذلك، ويتجاوز عن تقصيرهم ويغض طرفه عن نقصهم، ولا يتكبر على الصغير لصغره، ولا ناقص العقل لنقصه، ولا الفقير لفقره، بل يعامل الجميع باللطف والمقابلة بما تقتضيه الحال وتنشرح له صدورهم. ^(٣)

وقال ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: قوله تعالى ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ أي: خذ ما عفا من الناس وما تيسر، ولا تطلب حَقَّك كله؛ لأنه لا يحصل لك، فخذ منهم ما عفا وسهل. اهـ. ^(٤)

وقال رَحِمَهُ اللهُ: قال خذ العفو ولم يقل أعف ولا أفعل العفو، بل قال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ والمراد بالعفو هنا ما عفا وسهل من الناس؛ لأن الناس يعامل بعضهم بعضاً، فمن أراد من الناس أن يعاملوه على الوجه الذي يحب وعلى الوجه الأكمل؛ فهذا شيء يصعب عليه ويشق عليه ويتعب وراء الناس. وأما من استرشد بهذه الآية، وأخذ ما عفا من الناس وما سهل، فما جاء منهم قبله، وما أضاعوه من حقه تركه، إلا إذا

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٢ / ٤٠٢

(٢) انظر العذب النмир من مجالس الشنقيطي في التفسير (٤ / ٤٣٩)

(٣) تفسير السعدي (٣١٣)

(٤) شرح رياض الصالحين ١ / ٢٧٧

انتَهكت محارم الله، فإن هذا هو الذي أرشد الله إليه؛ أن نأخذ العفو، فخذ ما تيسر من أخلاق الناس معاملتهم لك، والباقي أنت صاحب الفضل فيه إذا تركته. ^(١) ومما سبق يتضح أن قوله تعالى ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ يشمل الرفق واللين، وترك الغلظة والشدة عليهم، ويشمل أيضاً العفو والصفح والمسامحة.

قال ابن العربي رَحِمَهُ اللهُ: أما العفو فإنه عام في متناولاته، ويصح أن يراد به خذ ما خف وسهل مما تعطى، فقد كان رسول الله ﷺ يقبل من الصدقة التمرة والقبضة والحبّة والدرهم والسمل، ولا يلزم شيئاً من ذلك ولا يعيبه: ولقد كان يسقط من الحقوق ما يقبل الإسقاط حتى قالت عائشة في الصحيح: ما انتقم رسول الله لنفسه قط. ^(٢) وأما الاحتمال: فقد كان يصبر على الأذى، ويحتمل الجفاء، حتى قال ﷺ: «يرحم الله موسى، لقد أؤذي بأكثر من هذا فصبر» ^(٣) ^(٤).

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ دخل فيه صلة القاطعين، والعفو عن المذنبين، والرفق بالمؤمنين، وغير ذلك من أخلاق المطيعين. ^(٥) فهذه وصية ربانية تُعَلِّمُ المؤمن كيف يتعامل مع الناس، لا بمنظار الكمال، بل بمنظار الرحمة والواقعية؛ لأن البشر بطبعهم مقصرون، ومن أراد أن يأخذ من الناس حقوقه كاملة فلن يعيش بينهم بسلام.

فالله تعالى يأمر نبيه ﷺ أن يأخذ من الناس ما تيسر من الخير، ويغض الطرف عن التقصير، ليكون ذلك سبباً في دوام الألفة والرحمة فمن أراد محبة الناس فليتغافل، ومن أراد أن يؤلف القلوب فليعف، ومن أراد أن يُحسن التوجيه فليبدأ باللين لا

(١) شرح رياض الصالحين ٣ / ٥٧٥

(٢) رواه البخاري (٦١٢٦) ومسلم (٢٣٢٧)

(٣) رواه البخاري (٦٣٣٦) ومسلم (١٠٦٢) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ط العلمية (٢ / ٣٦٠)

(٥) الجامع لأحكام القرآن ٧ / ٣٤٤

بالتقريع.

وقد قال ﷺ لأمره معاذ وأبي موسى الأشعري لما بعثهما إلى اليمن: «بشرا ولا تنفرا ويسرا ولا تعسرا وتطاوعا ولا تختلفا»^(١).

وقال صاحبه أبو برزة الأسلمي: إني صحبت رسول الله ﷺ وشهدت تيسيره.^(٢)
وقد كانت الأمم التي قبلنا في شرائعهم ضيق عليهم، فوسع الله على هذه الأمة أمورها وسهلها لهم.^(٣)



(١) رواه البخاري (٣٠٣٨)، ومسلم (١٧٣٣) باختلاف يسير من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.
(٢) رواه البخاري (١١٥٣) بلفظ: غزوت مع رسول الله ﷺ ست غزوات، أو سبع غزوات، وثمان، وشهدت تيسيره.
(٣) تفسير ابن كثير (٤٣٩ / ٣)

فضل العفو والصفح

والعفو لغة: مصدر قولهم عفا يعفو عفوا وهو مأخوذ من مادة (ع ف و) التي تدل على معنيين أصليين الأول ترك الشيء، والآخر طلبه ومن هذا المعنى الثاني: العفاة وهم طلاب المعروف، ومن ذلك أيضا: أعطيته المال عفوا أي من غير طلب. ^(١)

واصطلاحاً: قال المناوي: العفو: القصد لتناول الشيء والتجاوز عن الذنب. ^(٢)

وقال الكفوي: العفو: كف الضرر مع القدرة عليه، وكل من استحق عقوبة فتركها فهذا الترك عفو. ^(٣)

وقال أيضا: العفو عن الذنب يصح رجوعه إلى ترك ما يستحقه المذنب من العقوبة، وإلى محو الذنب، وإلى الإعراض عن المؤاخذه كما يعرض المرء عما يسهل على النفس بذله. ^(٤)

الفرق بين العفو والصفح:

الصفح والعفو متقاربان في المعنى فيقال:

صفحت عنه أعرضت عن ذنبه وعن تثريبه، كما يقال عفوت عنه.
إلا أن الصفح أبلغ من العفو فقد يعفو الإنسان ولا يصفح، وصفح عنه: أوليته صفحة جميلة. ^(٥)

وقد دلت الأدلة المتواترة على أفضلية العفو والصفح ومن ذلك:

قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]

- (١) انظر هذه المعاني وما أشبهها في المقاييس (٤ / ٦١) وما بعدها وكتاب العين للخليل بن أحمد (٢ / ٢٥٨)، والمفردات للراغب (٣٤٠)، والصحاح (٦ / ٢٤٣٣)، والنهاية ٢ / ٢٦٥، ولسان العرب (٤ / ٣٠٢٠)
- (٢) التوقيف (٢٤٣)
- (٣) الكليات (٥٣)، وانظر أيضا (٥٩٨)
- (٤) انظر الكليات للكفوي (٦٣٢)
- (٥) بصائر ذوي التمييز (٣ / ٤٢١)

قال السمعاني رَحِمَهُ اللهُ: أي: خذ الميسور من أخلاق الناس مثل: قبول الاعتذار، والعفو والمساهلة في الأمور، وترك البحث عن الأشياء ونحو ذلك. ^(١)

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: فقوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ دخل فيه صلة القاطعين، والعفو عن المذنبين، والرفق بالمؤمنين، وغير ذلك من أخلاق المطيعين. ^(٢)

وقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠]

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللهُ: يقول جل ثناؤه: فمن عفا عمن أساء إليه إساءته إليه، فغفرها له، ولم يعاقبه بها، وهو على عقوبته عليها قادر ابتغاء وجه الله، فأجر عفوهِ ذلك على الله، والله مثيبه عليه ثوابه. ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ يقول: إن الله لا يحب أهل الظلم الذين يتعدون على الناس، فيسيئون إليهم بغير ما أذن الله لهم فيه. ^(٣)

وقال السعدي رَحِمَهُ اللهُ: ذكر الله في هذه الآية، مراتب العقوبات، وأنها على ثلاث مراتب: عدل وفضل وظلم.

فمرتبة العدل، جزاء السيئة بسيئة مثلها، لا زيادة ولا نقص، فالنفس بالنفس، وكل جارحة بالجارحة المماثلة لها، والمال يضمن بمثله.

ومرتبة الفضل: العفو والإصلاح عن المسيء، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠] يجزيه أجرا عظيما، وثوابا كثيرا، وشرط الله في العفو الإصلاح فيه، ليدل ذلك على أنه إذا كان الجاني لا يليق العفو عنه، وكانت المصلحة الشرعية تقتضي عقوبته، فإنه في هذه الحال لا يكون مأمورا به.

وفي جعل أجر العافي على الله ما يهيج على العفو، وأن يعامل العبد الخلق بما

(١) تفسير السمعاني (٢/ ٢٤٢)

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٣٤٤)

(٣) تفسير الطبري ٢١/ ٥٤٨

يحب أن يعامله الله به، فكما يحب أن يعفو الله عنه، فَلْيَعْفُ عَنْهُمْ، وكما يحب أن يسامحه الله، فليسامحهم، فإن الجزاء من جنس العمل.

وأما مرتبة الظلم فقد ذكرها بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ الذين ينجنون على غيرهم ابتداءً، أو يقابلون الجاني بأكثر من جنايته، فالزيادة ظلم. اهـ ^(١)

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَلْيَعْفُوا﴾ يقول: وليعفوا عما كان منهم إليهم من جُرم، وذلك كجرم مِسْطَحٍ إلى أبي بكر في إشاعته على ابنته عائشة ما أشاع من الإفك، ﴿وَلْيَصْفَحُوا﴾ يقول: وليتركوا عقوبتهم على ذلك، بحرمانهم ما كانوا يؤتونهم قبل ذلك، ولكن ليعودوا لهم إلى مثل الذي كانوا لهم عليه من الإفضال عليهم، ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ يقول: ألا تحبون أن يستر الله عليكم ذنوبكم بإفضالكم عليهم، فيترك عقوبتكم عليها ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لذنوب من أطاعه واتباع أمره، ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم أن يعذبهم مع اتباعهم أمره، وطاعتهم إياه على ما كان لهم من زلة وهفوة قد استغفروه منها، وتابوا إليه من فعلها. اهـ ^(٢)

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٧]

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: ثم رغب في العفو، وأن من عفا، كان أقرب لتقواه، لكونه إحساناً موجبا لشرح الصدر، ولكون الإنسان لا ينبغي أن يهمل نفسه من الإحسان والمعروف، وينسى الفضل الذي هو أعلى درجات المعاملة، لأن معاملة الناس فيما

(١) تفسير السعدي ص ٧٦٠

(٢) تفسير الطبري ١٩ / ١٣٦

بينهم على درجتين: إما عدل وإنصاف واجب، وهو: أخذ الواجب، وإعطاء الواجب. وإما فضل وإحسان، وهو إعطاء ما ليس بواجب والتسامح في الحقوق، والغض مما في النفس، فلا ينبغي للإنسان أن ينسى هذه الدرجة، ولو في بعض الأوقات، وخصوصاً لمن بينك وبينه معاملة، أو مخالطة، فإن الله مجاز المحسنين بالفضل والكرم، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: وأما قوله: والعافين عن الناس، فإنه يعني: والصافحين عن الناس عقوبة ذنوبهم إليهم وهم على الانتقام منهم قادرون، فتاركوها لهم. وأما قوله: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ فإنه يعني: فإن الله يحب من عمل بهذه الأمور التي وصف أنه أعدّ للعاملين بها الجنة التي عرضها السموات والأرض، والعاملون بها هم المحسنون، وإحسانهم، هو عملهم بها. اهـ^(٢)

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: ثم قال تعالى: والعافين عن الناس أي مع كف الشر يعفون عمن ظلمهم في أنفسهم فلا يبقى في أنفسهم موجدة على أحد، وهذا أكمل الأحوال، ولهذا قال والله يحب المحسنين فهذا من مقامات الإحسان، وفي الحديث «ثلاث أقسم عليهن: ما نقص مال من صدقة، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، ومن تواضع لله رفعه الله»^{(٣) (٤)}.

وقوله تعالى مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ

(١) تفسير السعدي ص ١٠٥

(٢) تفسير الطبري ٧ / ٢١٥

(٣) رواه مسلم ٢٥٨٨ من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) تفسير ابن كثير ٢ / ١٠٦

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ [آل عمران: ١٥٩]

وقوله تعالى: ﴿إِنْ تُبْذُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا

قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩]

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: يقول: فاعفوا، أنتم أيضاً، أيها الناس، عمن أتى إليكم ظلماً، ولا تجهروا له بالسوء من القول، وإن قدرتم على الإساءة إليه، كما يعفو عنكم ربكم مع قدرته على عقابكم، وأنتم تعصونه وتخالفون أمره. اهـ (١)

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: ثم قال تعالى: ﴿إِنْ تُبْذُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ﴾ وهذا يشمل كل خير قولِيّ وفعلِيّ، ظاهر وباطن، من واجب ومستحب. ﴿أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ﴾ أي: عمن ساءكم في أبدانكم وأموالكم وأعراضكم، فتسمحوا عنه، فإن الجزاء من جنس العمل. فمن عفا الله عفا الله عنه، ومن أحسن أحسن الله إليه، فلهذا قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ أي: يعفو عن زلات عباده وذنوبهم العظيمة فيسدل عليهم ستره، ثم يعاملهم بعفوه التام الصادر عن قدرته. اهـ (٢)

وقوله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣]

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ وهذا هو عين النصر والظفر، كما قال بعض السلف: ما عاملت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه. وبهذا يحصل لهم تأليف وجمع على الحق، ولعل الله أن يهديهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ يعني به: الصفح عمن أساء إليك. اهـ (٣)

وعن أبي هريرة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن رسول الله ﷺ قال: «ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله

عبدا بعفو إلا عزا. وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله». (٤)

(١) تفسير الطبري ٩ / ٣٥١

(٢) تفسير السعدي ص ٢١٢

(٣) تفسير ابن كثير ٣ / ٦٧

(٤) رواه مسلم ٢٥٨٨

قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللهُ: قوله: ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً: فيه وجهان: **أحدهما:** ظاهره أن من عرف بالصفح والعفو ساد وعظم في القلوب وزاد عزه. **الثاني:** أن يكون أجره على ذلك في الآخرة وعزته هناك. اهـ ^(١)

وعن عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: إن رسول الله ﷺ، قال: «ثلاث، والذي نفس محمد بيده، إن كنت لحالفا عليهن: لا ينقص مال من صدقة، فتصدقوا، ولا يعفو عبد عن مظلمة يبتغي بها وجه الله إلا رفعه الله بها عزاً». ^(٢)

وقد حث النبي ﷺ على العفو فقال: «تعافوا الحدود فيما بينكم، فما بلغني من حدٍّ فقد وَجِبَ». أخرجه أبو داود والنسائي من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ^(٣)

قال صاحب عون المعبود رَحِمَهُ اللهُ: (تعافوا) أمر من التعافي، والخطاب لغير الأئمة. (الحدود) أي: تجاوزوا عنها ولا ترفعوها إليّ فإنّي متى علمتها أقمتها. قاله السيوطي. (فما بلغني من حد فقد وجب) أي: فقد وجب عليّ إقامته. وفيه أن الإمام لا يجوز له العفو عن حدود الله إذا رفع الأمر إليه، وهو بإطلاقه يدل على أن ليس للمالك أن يجري الحد على مملوكه بل يعفو عنه أو يرفع إلى الحاكم أمره فإنه داخل تحت هذا الأمر، وهو الاستحباب. قاله القاري. ^(٤)

وقال ابن الأمير الصنعاني رَحِمَهُ اللهُ: (تعافوا الحدود فيما بينكم) أي تجاوزوا من العفو وهو التجاوز والخطاب لغير الأئمة من الأمة أي يعفو بعضكم عن بعض فيما

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم ٨ / ٥٩

(٢) صحيح لغيره: كما قال الألباني في صحيح الترغيب (٨١٤) وأخرجه أحمد (١٦٧٤)، والبزار (١٠٣٢)، وأبو يعلى (٨٤٩)

(٣) حسن: كما قال الألباني، في صحيح الجامع (٢٩٥٤) والحديث أخرجه أبو داود (٤٣٧٦)، والنسائي (٤٨٨٦)

(٤) عون المعبود وحاشية ابن القيم (١٢ / ٢٦) وانظر مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦ / ٢٣٤٣)

أتاه الآخر إليه مما يوجب حدا ولا ترفعوها إليّ. (فإنه ما بلغني من حد) أي مما يوجب حداً. (فقد وجب) عليّ إقامته لأنها بعد البلوغ لا يسقطها عفو ذي الحق كالسارق ولو رفعه المسروق عليه ثم عفى عنه فإنه لا يسقط حده، والحديث عام لكل حد. اهـ^(١)



(١) التنوير شرح الجامع الصغير (٥ / ٥١)

نَمَازِجُ مِنْ عَفْوِ النَّبِيِّ ﷺ

كان النبي ﷺ قد بلغ القمة والدرجة العالية في العفو والصفح، كما هو شأنه في كل خلق من الأخلاق الكريمة، فكان عفوه يشمل الأعداء فضلا عن الأصدقاء. وكان ﷺ أجمل الناس صفحا، يتلقى من قومه الأذى المؤلم ونصحهم كأنما لم يلق منهم شيئا!

وقد عفا رسول الله ﷺ عن أولئك النفر الثمانين الذين قصدوه عام الحديبية، ونزلوا من جبل التنعيم، فلما قدر عليهم من عليهم مع قدرته على الانتقام. فعن أنس رضي الله عنه أن ثمانين رجلا من أهل مكة هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم متسلحين يريدون غرة ^(١) النبي ﷺ وأصحابه، فأخذهم سلما فاستحياهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الفتح: ٢٤]. ^(٢)

وعن أنس رضي الله عنه قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ، وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي، فجبذه بردائه جبذة شديدة، فنظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ، وقد أثرت بها حاشية الرداء من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد، مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه، فضحك، ثم أمر له بعتاء. ^(٣)

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما ضرب رسول الله ﷺ شيئا قط بيده، ولا امرأة ولا خادما إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شيء من محارم الله تعالى، فينتقم لله عز وجل. ^(٤)

(١) أي: تنزلوا على غفلة منه.

(٢) رواه مسلم (١٨٠٨)

(٣) أخرجه البخاري (٥٨٠٩)، ومسلم (١٠٥٧)

(٤) أخرجه مسلم (٢٣٢٨)

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه غزا مع رسول الله ﷺ قبل نجد، فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معه، فأدركتهم القائلة في واد كثير العضاة، فنزل رسول الله ﷺ، وتفرق الناس يستظلون بالشجر فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرة وعلق بها سيفه ونمنا نومة، فإذا رسول الله ﷺ يدعوننا، وإذا عنده أعرابي فقال: «إن هذا اختلط علي سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صلتا، فقال: من يمنعك مني؟. فقلت: الله - ثلاثا - ولم يعاقبه وجلس». (١)

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه أن النبي ﷺ ركب حمارا عليه إكاف، تحته قطيفة فدكية. وأردف وراءه أسامة، وهو يعود سعد بن عباد في بني الحارث بن الخزرج. وذلك قبل وقعة بدر، حتى مر بمجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان، واليهود، فيهم عبد الله بن أبي، وفي المجلس عبد الله بن رواحة، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة، خمر عبد الله بن أبي أنفه بردائه، ثم قال: لا تغبروا علينا، فسلم عليهم النبي ﷺ ثم وقف فنزل؛ فدعاهم إلى الله، وقرأ عليهم القرآن، فقال عبد الله بن أبي: أيها المرء، لا أحسن من هذا إن كان ما تقول حقا! فلا تؤذنا في مجالسنا، وارجع إلى رحلك، فمن جاءك منا فاقصص عليه. فقال عبد الله بن رواحة: اغشنا في مجالسنا؛ فإننا نحب ذلك، قال: فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى هموا أن يتواثبوا، فلم يزل النبي ﷺ يخفضهم، ثم ركب دابته حتى دخل على سعد بن عباد. فقال: أي سعد، ألم تسمع إلى ما قال أبو حباب؟! يريد عبد الله بن أبي، قال كذا وكذا، قال: اعف عنه يا رسول الله واصفح، فوالله لقد أعطاك الله الذي أعطاك، ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة أن يتوجوه فيعصبوه بالعصاب، فلما رد الله ذلك بالحق الذي أعطاكه شرق بذلك، فذلك فعل به ما رأيت! فعفا عنه النبي ﷺ. (٢)

(١) رواه البخاري (٤١٣٩) ومسلم (٨٤٣) باختلاف يسير

(٢) رواه البخاري (٤٥٦٦) ومسلم (١٧٩٨) واللفظ له.

وعن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ، أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: «لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة؛ إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلنتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال، فسلم علي، ثم قال: يا محمد، فقال: ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين»، فقال له رسول الله ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً». (١)

وبوب الإمام الوادعي رحمته الله في كتابه الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين فقال: قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] قال الإمام ابن حبان رحمته الله كما في "الإحسان" (ج ٣ ص ٢٥٤): أخبرنا الحسن بن سفيان حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامي حدثنا محمد بن فليح عن موسى بن عقبة عن ابن شهاب عن سهل بن سعد الساعدي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون». هذا حديث حسن. (٢)



(١) رواه البخاري (٣٢٣١) ومسلم (١٧٩٥) واللفظ له.

(٢) الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين (٥/ ٦٦٣) والحديث أخرجه أيضاً الطبراني في «المعجم الكبير» (٦/ ١٢٠) (٥٦٩٤)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢٠٩٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٣٧٦) واللفظ لهم. وأصل الحديث في البخاري (٣٤٧٧)، ومسلم (١٧٩٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه بلفظ: كأي أنظر إلى النبي ﷺ يحكي نبيا من الأنبياء ضربه قومه فأدموه، وهو يمسخ الدم عن وجهه ويقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون.

نَمَازِجٌ مِنْ عَفْوِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ

عفو نبي الله نوح ﷺ: دعا نوح ﷺ قومه طيلة سنوات طويلة، رغم تكذيبهم وشركهم بالله، ولم يمل أو يجزع، ولم يسعَ للانتقام الشخصي منهم. وقد عُرف صبره وثباته حتى أمر الله بالعذاب، فأُنقذ الله المؤمنين فقط. وهذا مثال على العفو المستمر والدعوة بالحسنى قبل وقوع العقوبة.

عفو عفو نبي الله إبراهيم ﷺ: عُرف إبراهيم ﷺ بالدعوة بلطف ولين، مع تجاوز عن من أخطأ في حقه أو كفر، فكان يعظهم بالحكمة والموعظة الحسنة، ويترك الجزاء لله تعالى.

عفو نبي الله موسى ﷺ: واجه موسى ﷺ فرعون الذي ظلم بني إسرائيل وعدَّ بهم، لكنه لم يسعَ للانتقام الشخصي، بل اقتصر على رفع دعائه إلى الله تعالى وطلب العدل والنجاة لأمته، قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَآئِهِ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوْا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨] وهذا يعلمنا أن العفو أحياناً يكون في ضبط النفس وترك الجزاء لله.

عفو نبي الله هارون ﷺ: وذلك حين عبد بني إسرائيل العجل أثناء غياب موسى، لم يسعَ هارون إلى الانتقام، بل دعا قومه للتوبة وتصحيح الخطأ، مؤكداً على أهمية الإصلاح والنصح قبل العقوبة.

عفو نبي الله داود ﷺ: كان داود ﷺ معروفاً بالعدل والتسامح، فقد عفا عن خصومه ومخالفيه، وترك الجزاء للحق، مع حرصه على إقامة العدل وحفظ حقوق الناس.

عفو نبي الله يعقوب ﷺ: عانى يعقوب ﷺ كثيراً بسبب ظلم أبنائه ليوسف ﷺ، فقد باعوه وأخفوا أمره عنه، وعاش يعقوب فترة طويلة في الحزن والأسى. ومع

ذلك، عندما كشف الله له حقيقة يوسف، التقى أبناؤه بالرحمة والعتو بدل العقاب، فلم يعاقبهم على ما فعلوه، بل سامحهم واحتوى خطأهم: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ ٩٦ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿[يوسف: ٩٧-٩٨].

إن عفو يعقوب عليه السلام يعكس الصبر الطويل، والتجاوز عن ظلمك حتى لو كانوا أقرب الناس إليك، ويعلمنا أن العفو الحقيقي يحتاج إلى ضبط النفس، والتوكل على الله، والرحمة بالآخرين مهما كانت الأخطاء جسيمة.

عَفُو نَبِيِّ اللَّهِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ إِخْوَتِهِ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿قَالُوا تَأَلَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ ٩٦ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿[يوسف: ٩١-٩٢].



وختاماً: إن قصص الأنبياء جميعاً تعلمنا أن العفو صفة عظيمة، ليس ضعفاً أو استسلاماً، بل قوة وإيماناً بالله، وحرصاً على الخير والصلاح. فالعفو يرفع صاحبه ويجعله محبوباً عند الله والناس، ويكسب المجتمع أمناً وسلاماً.

وقد تنوعت صور العفو بين العفو عن المعتدين، والتجاوز عن المقصرين، والدعوة بالحسن قبل العقوبة، ليكون العفو دائماً سلوكاً حضارياً ودعواً متكاملًا.

قال الطبري رحمه الله: يقول تعالى ذكره: قال يوسف لإخوته: ﴿لَا تَثْرِيْبَ﴾ يقول: لا تعير عليكم ولا إفساد لما بيني وبينكم من الحرمة وحق الأخوة، ولكن لكم عندي الصفح والعفو. اهـ ^(١)



نَمَازِجُ مِنْ عَفْوِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

عفو أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عن مسطح بن أثاثة: وكان مسطح بن أثاثة ممن تكلم في الإفك، فلما أنزل الله براءة عائشة قال أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقربته منه -: والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد ما قال لعائشة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِلْ أُولُو الْأَفْضَالِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]، فقال أبو بكر: بلى والله، إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح الذي كان يجري عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً. ^(١)

عفو عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قدم عيينة بن حصن بن حذيفة، فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس، وكان من نفر الذين يدينهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته، كهولا كانوا أو شبانا، فقال عيينة لابن أخيه: يا بن أخي، هل لك وجه عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه؟ قال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عباس: فاستأذن الحر لعيينة، فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال: هي يا ابن الخطاب! فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى هم أن يوقع به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وإن هذا من الجاهلين، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافا عند كتاب الله. ^(٢)

(١) واه مطولا البخاري (٤١٤١) واللفظ له، ومسلم (٢٧٧٠).

(٢) رواه البخاري (٤٦٤٢).

شروط حصول العافي للأجر

ويشترط لهذا الفضل وذاك الثواب للعافي حتى يتحقق أمور:

الأول: أن يعفو عن حقه قاصداً الأجر والفضل من الله، فيترك الانتصار والانتقام لله تعالى.

عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَنَّ رَجُلًا شَتَمَ أَبَا بَكْرٍ وَالنَّبِيَّ ﷺ جَالِسٌ فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَعْجَبُ وَيَتَسَمُّ فَلَمَّا أَكْثَرَ رَدَّ عَلَيْهِ بَعْضُ قَوْلِهِ فَغَضِبَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَامَ فَلَحَقَهُ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَانَ يَشْتِمُنِي وَأَنْتَ جَالِسٌ فَلَمَّا رَدَدْتُ عَلَيْهِ بَعْضَ قَوْلِهِ غَضِبْتَ وَقَمْتَ قَالَ: «إِنَّهُ كَانَ مَعَكَ مَلَكٌ يُرَدُّ عَنْكَ فَلَمَّا رَدَدْتَ عَلَيْهِ بَعْضَ قَوْلِهِ وَقَعَ الشَّيْطَانُ فَلَمْ أَكُنْ لِأَقْعِدَ مَعَ الشَّيْطَانِ ثُمَّ قَالَ يَا أَبَا بَكْرٍ ثَلَاثٌ كُلُّهُنَّ حَقٌّ مَا مِنْ عَبْدٍ ظَلِمَ بِمَظْلَمَةٍ فَيُعْضِي عَنْهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا أَعَزَّ اللَّهُ بِهَا نَصْرَهُ وَمَا فَتَحَ رَجُلٌ بَابَ عَطِيَّةٍ يُرِيدُ بِهَا صِلَةً إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ بِهَا كَثْرَةً وَمَا فَتَحَ رَجُلٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ يُرِيدُ بِهَا كَثْرَةً إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ بِهَا قِلَّةً»^(١).

الثاني: أن يكون قادراً على أخذ حقه، فلا يعفو لضعف ولا لعجز.

وهو واضح في المعنى اللغوي والشرعي للعفو،

قال البخاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي صَحِيحِهِ: باب: الانتصار من الظالم.

لقوله جل ذكره: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٨] ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩] قال إبراهيم: كانوا يكرهون أن يستذلوا، فإذا قدروا عفوا. اهـ^(٢)

وبهذا الأمر تتبين قوة ومهابة العافي عن المسيء من المستحقين للعفو، فعندما

(١) صحيح: أخرجه البزار في «المسند» (٨٤٩٥)، والطبراني في «الأوسط» (١٨٩/٧)، والبيهقي في «الكبرى» (٢٣٦/١٠) باختلاف يسير. وقال الشيخ الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٥/

٢٧١): قلت: وإسناده جيد.

(٢) صحيح البخاري ٨٦٣ / ٢

تظهر قدرته على الانتصار والانتقام ويعفو عنه : يكون قد حقق لنفسه المهابة وحاز فضل وأجور العفو .

قال ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللهُ: ووصفهم في معاملتهم للخلق بالمغفرة عند الغضب وندبهم إلى العفو والإصلاح، وأما قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩]، فليس منافياً للعفو؛ فإن الانتصار يكون بإظهار القدرة على الانتقام ثم يقع العفو بعد ذلك فيكون أتم وأكمل، قال النخعي في هذه الآية: "كانوا يكرهون أن يُستذلوا فإذا قدروا عفوا" ^(١)، وقال مجاهد: "كانوا يكرهون للمؤمن أن يُذل نفسه فتجترأ عليه الفساق" ^(٢)، فالمؤمن إذا بُغي عليه يُظهر القدرة على الانتقام ثم يعفو بعد ذلك، وقد جرى مثل هذا لكثير من السلف منهم عطاء وقتادة. اهـ ^(٣)

الثالث: أن يترتب على عفوه إصلاح، ولا يترتب ضرر.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠] فلا يعفو عن مجرم معروف بالشر وإيقاع الضرر بالناس، لما يترتب على العفو عنه من إطلاق يديه في الشر والسوء، لذا لا يشرع العفو عنه، بل تجب عقوبته وكف يده عن الناس بما يُستطاع.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: والعدل نوعان:

أحدهما: هو الغاية، والمأمور بها، فليس فوقه شيء هو أفضل منه يؤمر به، وهو العدل بين الناس .

(١) أخرجه: ابن أبي حاتم في "تفسيره" (١٨٤٨٦)، والطبري في "تفسيره" (٢٣٧٤٠). بسند صحيح. وعزه السيوطي إلى ابن جرير، وسعيد بن منصور، وابن المنذر.

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: وهذا الأثر وصله عبد بن حميد، وابن عيينة في تفسيرهما في تفسير الآية المذكورة.. فتح الباري (٥/ ١٠٠) وانظر موسوعة التفسير المأثور (١٩/ ٥٨١)

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٣٥٨) من قول النخعي، ونسبه لعبد بن حميد.

(٣) جامع العلوم والحكم ص ١٧٩

والثاني: ما يكون الإحسان أفضل منه، وهو عدل الإنسان بينه وبين خصمه في الدم والمال والعرض، فإن الاستيفاء عدل، والعفو إحسان، والإحسان هنا أفضل، لكن هذا الإحسان لا يكون إحساناً إلا بعد العدل، وهو ألا يحصل بالعفو ضرر، فإذا حصل منه ضرر: كان ظلماً من العافي، إما لنفسه، وإما لغيره، فلا يشرع. اهـ (١)

وقال الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمته الله في شرح حديث وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا (٢): وفي هذا حثٌّ على العفو، ولكن العفو مقيّد بما إذا كان إصلاحاً؛ لقول الله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، أما إذا لم يكن إصلاحاً بل كان إفساداً: فإنه لا يؤمر به، مثال ذلك: اعتدى شخص شريراً معروف بالعدوان على آخر، فهل نقول للآخر الذي اعتدى عليه: اعف عن هذا الشرير؟ لا نقول اعف عنه؛ لأنه شرير، إذا عفوت عنه تعدّى على غيرك من الغد، أو عليك أنت أيضاً، فمثل هذا نقول: الحزم والأفضل أن تأخذه بجريّته، يعني: أن تأخذ حقه منه، وألا تعفو عنه؛ لأن العفو عن أهل الشر والفساد ليس بإصلاح بل لا يزيدهم إلا فساداً وشرّاً، فأما إذا كان في العفو خير وإحسان وربما يخجل الذي عفوت عنه ولا يتعدى عليك ولا على غيرك: فهذا خير. اهـ (٣)

وأما ما قد تجده في نفسك في حال رغبتك بالعفو عن ظلمك ممن تستطيع أخذ حقه والانتصار منه، وترى أن عفوك عنه فيه صلاح له وليس يترتب عليه ضرر عليك أو على الناس: فإن ذلك من الشيطان يصوّر لك أمر العفو والمسامحة أنه ذل وخنوع وانكسار، وكل ذلك ليصدك عن العز ورفع الشأن، ومزيد الأجر، فكن متيقظاً لهذا.

(١) انظر جامع المسائل ٦ / ٣٨

(٢) رواه مسلم ٢٥٨٨ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

(٣) شرح رياض الصالحين ٣ / ٥٢٥

قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمته الله: إذا جنى عليك أحد وظلمك في مالك أو في بدنك أو في أهلِكَ أو في حق من حقوقك، فإن النفس شحيحة تأبى إلا أن تنتقم منه، وأن تأخذ بحقك، وهذا لك، قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤] وقال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦]، ولا يلام الإنسان على ذلك، لكن إذا همَّ بالعتو وحدث نفسه بالعتو: قالت له نفسه الأُمارة بالسوء: إن هذا ذل وضعف! كيف تعفو عن شخص جنى عليك أو اعتدى عليك؟ وهنا يقول الرسول عليه الصلاة والسلام: وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً. ^(١) والعز ضد الذل، وما تحدثك به نفسك أنك إذا عفوت فقد ذلت أمام من اعتدى عليك: فهذا من خداع النفس الأُمارة بالسوء ونهيها عن الخير، فإن الله تعالى يثيبك على عفوك هذا عزاً ورفعاً في الدنيا والآخرة. اهـ ^(٢)

وفي قول النبي ﷺ: «وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً». دفع لما يسبق إلى الظنون من أن العفو سبب للذلة، أو أن المهابة والمنزلة لا تكون إلا بالانتقام وأخذ الحق.

قال الصنعاني رحمته الله: وفيه: أنه يجعل الله تعالى للعافي عزاً وعظمةً في القلوب؛ لأنه بالانتصاف يظن أنه يعظم ويُصان جانبه ويُهاب، ويظن أن الإغضاء والعتو لا يحصل به ذلك، فأخبر رسول الله ﷺ بأنه يزداد بالعتو عزاً. اهـ ^(٣)



(١) رواه مسلم ٢٥٨٨ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

(٢) شرح رياض الصالحين ٣ / ٤٠٨ وما بعدها

(٣) سبل السلام ٤ / ٢٠٩

أقسام العفو

عفو ممدوح: وأعلاه العفو بلا شروط، فيعفو عن المسيء دون أن يشترط عليه شيئاً ابتغاء مرضاة الله، وطلباً لمعالي الأمور ومكارم الأخلاق. ومن العفو عفو مشروط، كالعفو عن المسيء بشرط رد الاعتبار باعتذار أو تعويض.

عفو مذموم: ومنه العفو فيما لا يحل فيه العفو عنه، كعفو الحاكم في حد من الحدود، أو العفو عن المفسدين، والعفو عمن يزيده العفو ظلماً وعدواناً وبغياً، فالعفو الذي تزداد به جريمة المعتدي ليس بمحمود ولا مأجور عليه. ومنه العفو لغير القادر على الانتقام، فيعفو ذلاً ومهانة وعجزاً، فمثل هذا لا يمدح فاعله.

وقد يلحق العفو ما يخل به، كالعفو عن المسيء بعد كسره وقهره وإذلاله. **قال ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:** العفو قد يكون سبباً للزيادة في الطغيان والعدوان، وقد يكون سبباً لالتهاء عن ذلك، وقد لا يزيد المعتدي ولا ينقصه. فإذا كان مسبباً للزيادة في الطغيان كان العفو هنا مذموماً، وربما يكون ممنوعاً؛ مثل أن نعفو عن هذا المجرم، ونعلم أو يغلب على الظن أنه يذهب فيجرم إجراماً أكبر؛ فهنا لا يمدح العافي عنه، بل يذم.

وقد يكون العفو سبباً لالتهاء عن العدوان بحيث يخجل ويقول: هذا الذي عفا عني لا يمكن أن أعتدي عليه مرة أخرى، ولا على أحد غيره. فيخجل أن يكون هو من المعتدين، وهذا الرجل من العافين؛ فالعفو محمود ومطلوب، وقد يكون واجباً. وقد يكون العفو لا يؤثر ازدياداً ولا نقصاً؛ فهو أفضل. ^(١) اهـ

هل العفو والمسامحة أفضل أو أخذ الحق؟

الجواب: أن العفو أفضل من حيث الأصل لكن قد يوضع في غير مكانه فلا يكون أفضل، بل قد يَأْثِمُ العافي، فيجب وضع كل شيء في مكانه المستحق له.

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ: الانتقام له موضع يحسن فيه، والعفو له موضع كذلك؛ وإيضاحه: أن من المظالم ما يكون في الصبر عليه انتهاك حرمة الله، ألا ترى أن من غصبت منه جاريته -مثلاً- إذا كان الغاصب يزني بها فسكوته وعفوه عن هذه المظلمة قبيح وضعفٌ وخَوْرٌ تنتهك به حرمة الله، فالانتقام في مثل هذا واجب، وعليه يحمل الأمر في قوله ﴿فَاعْتَدُوا﴾ الآية أي: كما إذا بدأ الكفار بالقتال فقتالهم واجب، بخلاف من أساء إليه بعض إخوانه المسلمين بكلام قبيح ونحو ذلك، فعفوه أحسن وأفضل، وقد قال أبو الطيب المتنبّي:

إذا قيل حِلْمًا قال للحِلْمِ موضعٌ وحِلْمُ الفتى في غير موضعه جهلٌ^(١)

والذي يعفو عن المسيء المستحق للعفو: فإن له البشري بالعز في الدنيا والآخرة، تحقيقاً لقول رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا» رواه مسلم من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ^(٢)، وله الأجر والثواب في الآخرة، ومن ذلك ما قاله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمُوتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ٣١ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ٣٢ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٤]

(١) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب ص ٤٦

(٢) رواه مسلم (٢٥٨٨)

فضل التيسير ودم المشقة

تبيين مما سبق أن من معاني قوله سبحانه: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] التيسير وترك المشقة، كما ذكر ذلك ابن جرير الطبري ^(١) وغيره.

فمن مظاهر الرحمة في دين الإسلام: أنه دين يدعو إلى التيسير وينهى عن التعسير، ويدعو إلى الرفق وينهى عن العنف، وأن الشريعة مبنية على جلب المنافع والمصالح للعباد، ودرء المفاسد والمضار عنهم.

عن أبي بردة رضي الله عنه قال: بعث رسول الله ﷺ أبا موسى ومعاذ بن جبل إلى اليمن، قال: وبعث كل واحد منهما على مخالف، قال: واليمن مخالفان، ثم قال: «يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا» ^(٢).

قال القاضي عياض رحمته الله: فيه ما يجب الاقتداء به من التيسير في الأمور، والرفق بالناس، وتحبيب الإيمان إليهم، وترك الشدة والتنفير لقلوبهم، لا سيما فيمن كان قريب العهد به ^(٣).

وكان ﷺ نهى عن التعسير والمشقة على الناس حتى في عباداتهم.

عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه أنه قال: قال رجل يا رسول الله، لا أكاد أدرك الصلاة مما يطول بنا فلان فما رأيت النبي ﷺ في موعظة أشد غضبا من يومئذ. فقال: «أيها الناس إنكم منفرون، فمن صلى بالناس فليخفف؛ فإن فيهم المريض والضعيف وذا الحاجة» ^(٤).

قال الامام السعدي رحمه الله تعالى عند قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ

(١) انظر تفسير الطبري (١٣ / ٣٢٩)

(٢) رواه البخاري (٤٠٨٦) ومسلم (١٧٣٣)

(٣) إكمال المعلم بفوائد مسلم (٦ / ٣٧)

(٤) رواه البخاري (٩٠) ومسلم (٤٦٦) باختلاف يسير.

ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ أَلْبَرَّ مَنْ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا» [البقرة: ١٨٩] ويستفاد من إشارة الآية أنه ينبغي في كل أمر من الأمور، أن يأتيه الإنسان من الطريق السهل القريب، الذي قد جعل له موصلاً فالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ينبغي أن ينظر في حالة المأمور، ويستعمل معه الرفق والسياسة، التي بها يحصل المقصود أو بعضه، والمتعلم والمعلم، ينبغي أن يسلك أقرب طريق وأسهله، يحصل به مقصوده، وهكذا كل من حاول أمراً من الأمور وأتاه من أبوابه وثابر عليه، فلا بد أن يحصل له المقصود بعون الملك المعبود. ^(١)



بيان ما كان عليه النبي ﷺ من الرفق واللين

لقد كان ﷺ أشد الناس رفقاً، وأبعدهم عن المشقة، وما خُير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ﷺ.

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: ما خير النبي ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يَأْثِم، فإذا كان الإثم كان أبعدهما منه، والله ما انتقم لنفسه في شيء يؤتى إليه قط، حتى تنتهك حرمة الله، فينتقم الله. ^(١)

وهو القائل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به». ^(٢)

ومن رفقته ﷺ وتيسيره تخفيفه للصلاة عند سماع بكاء الصبي.

عن أنس بن مالك - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُ قَالَ: قال رسول الله ﷺ: «إني لأدخل الصلاة أريد إطالتها فأسمع بكاء الصبي فأخفف من شدة وجد أمه به». ^(٣)

قال القاضي عياض رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وفيه ما كان عليه عليه السلام من الرفق بأمته، والرأفة بهم، كما وصفه الله عز وجل به لقوله: ﴿يَا مُؤْمِنِينَ رَوْفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] وفيه التيسير في أمور الدين وغيرها، كما قال عليه السلام: يسروا ولا تنفروا. ^(٤)

قال ابن كثير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]: أي إنه جاء بالتيسير والسماحة كما ورد الحديث من طرق عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بعثت بالحنيفية السمحة». ^(٥)

(١) رواه البخاري (٦٧٨٦) ومسلم (٢٣٢٧)

(٢) رواه مسلم (١٨٢٨) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

(٣) رواه البخاري (٧٠٨) ومسلم (٤٧٠) واللفظ له

(٤) إكمال المعلم بفوائد مسلم (٢/ ٣٨٥) والحديث رواه البخاري (٦١٢٥) ومسلم (١٧٣٤) عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) صحيح: رواه أحمد (٢٤٨٥٥) والطبراني (٧٨٦٨) وصححه ابن باز كما في مجموع الفتاوى

الفصل الرابع: قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾

بعد أن وجه الله نبيه ﷺ إلى التعامل مع الخلق بالعفو والتسامح، أمره بأمر آخر هو الإحسان والإيجابية، فقال سبحانه: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾.

فكأن المعنى: لا يكفي أن تعفو عن الإساءة، بل بادر إلى الأمر بالخير، وسدّ القلوب نحو المعروف.

والمعروف لغة: كالعرف وهو ما تعرفه النفس من الخير وتطمئن إليه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥] أي مصاحباً معروفاً. (١)

واصطلاحاً: اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله والتقرب إليه، والإحسان إلى الناس، وكل ما ندب إليه الشرع، ونهى عنه من المحسنات والمقبحات. (٢)

فالأمر بالعرف هو الدعوة إلى كل ما يُحمد في الشرع والعقل والعادة الحسنة. وقد اختلف المفسرون في معنى العرف من قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ [الأعراف: ١٩٩]

قال ابن جرير الطبري رحمه الله: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله أمر نبيه ﷺ أن يأمر الناس بالعرف وهو المعروف في كلام العرب، مصدر في معنى المعروف يقال: أوليته عُرْفًا، وعارفًا، وعارفةً كل ذلك بمعنى: المعروف. فإذا كان معنى العرف ذلك، فمن المعروف صلة رحم من قُطع، وإعطاء من حُرِم، والعفو عمن ظلم. وكل ما أمر الله به من الأعمال أو ندب إليه، فهو من العرف. ولم يخص الله من ذلك

(٢٢٨/٢) وهو في السلسلة الصحية للألباني رحمه الله (٢٩٢٤) وذكره الوادعي رحمه الله في تحفة

المجيب على أسئلة الحاضر والغريب (ص ٢٣٩) ومقتل الشيخ جميل الرحمن الأفغاني (ص ١٨)

(١) انظر نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (٣/ ٥٢٥)

(٢) المصدر السابق

معنى دون معنى؛ فالحق فيه أن يقال: قد أمر الله نبيه ﷺ أن يأمر عباده بالمعروف كله، لا ببعض معانيه دون بعض. اهـ (١)

وقال البخاري رحمه الله: باب: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] العرف: المعروف. (٢):

وقال السعدي رحمه الله: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ أي: بكل قول حسن وفعل جميل، وخلق كامل للقريب والبعيد، فاجعل ما يأتي إلى الناس منك، إما تعليم علم، أو حث على خير، من صلة رحم، أو برٍّ والدين، أو إصلاح بين الناس، أو نصيحة نافعة، أو رأي مصيب، أو معاونة على بر وتقوى، أو زجر عن قبيح، أو إرشاد إلى تحصيل مصلحة دينية أو دنيوية. اهـ (٣)

واعلم وفقك الله أن قوله تعالى ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ يُرَبِّي الداعية والمربي على ألا يكون موقفه سلبياً يكتفي بالعفو والصفح، بل عليه أن يكون مبادراً للخير، داعياً إلى المعروف، مُوجِّهاً للناس بلينٍ وحكمةٍ. فالدين ليس فقط كفّ الأذى، بل نشر الخير.

ولذلك جاءت الكلمة بصيغة الأمر: لتدل على أن العرف لا يكتمل إلا إذا دُعي إليه، وأن الأخلاق لا تثمر إلا إذا نُشرت وعمّمت في الناس.

ومن تأمل في سيرة النبي ﷺ، وجده يأمر بالعرف في كل شأن:
أمر بالصدق والأمانة.

وأمر بالبر والإحسان إلى الوالدين.

وأمر بالإحسان إلى الجار، حتى قال ﷺ: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت

(١) تفسير الطبري ١٣ / ٣٣١

(٢) صحيح البخاري (٤) / (١٧٠٢)

(٣) تفسير السعدي ٣١٣

أنه سيورثه». (١)

ومن حكمة القرآن أنه قرن بين الأمر بالعرف والعفو والإعراض، لأن الدعوة لا تؤتي ثمرتها إلا إذا زُيِّنَتْ بالأخلاق.

فالأمر بالعرف لا يعني الغلظة في التوجيه، بل يعني أن يكون الداعية قدوةً في الخير قبل أن يكون أمراً به.

قال الله تعالى في وصف نبيه ﷺ: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَئِنْ لَّمْ يَكُنْ لَّكَ فِتْنَةٌ فَكَانَتْ خَلْقًا غَلِيظًا أَلْقَيْنَا لَكَ الْقُلُوبَ لَانْفِضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فالمعروف لا يُؤمر به إلا بلطف، كما قال النبي ﷺ: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه». (٢)

وهكذا يكون الداعية أمراً بالعرف بلسانٍ لطيفٍ، وصوتٍ خفيضٍ، ووجهٍ طلقٍ، لأن الكلمة الطيبة صدقة، ولأن المعاملة الحسنة أبلغ من ألف موعظة.



(١) رواه البخاري (٦٠١٤)، ومسلم (٢٦٢٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) رواه مسلم (٢٥٩٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

فضل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ووجوب ذلك

والأدلة على ذلك كثيرة ومتواترة ومنها:

قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠] فانظر كيف جعل الله الخيرية في هذه الأمة ما دامت ملتزمة بهذه العبادة العظيمة.

قال ابن عطية رَحِمَهُ اللَّهُ: وهذه الخيرية التي فرضها الله لهذه الأمة إنما يأخذ بحظه منها من عمل هذه الشروط من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله. اهـ (١)

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: قوله تعالى: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ مدح لهذه الأمة ما أقاموا ذلك واتصفوا به. فإذا تركوا التغيير وتواطئوا على المنكر زال عنهم اسم المدح ولحقهم اسم الذم، وكان ذلك سببا لهلاكهم. اهـ (٢)

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: هذا تفضيل من الله لهذه الأمة بهذه الأسباب، التي تميزوا بها وفاقوا بها سائر الأمم، وأنهم خير الناس للناس، نصحا، ومحبة للخير، ودعوة، وتعلima، وإرشادا، وأمر بالمعروف، ونهيا عن المنكر، وجمعا بين تكميل الخلق، والسعي في منافعهم، بحسب الإمكان، وبين تكميل النفس بالإيمان بالله، والقيام بحقوق الإيمان. اهـ (٣)

وقوله تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤] فبين الله أن الداعي إلى الخير والأمر بالمعروف والنهْي عن المنكر هو من خواص المؤمنين، ومن المفلحين.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: وهذه الطائفة المستعدة للدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف

(١) تفسير ابن عطية ١ / ٤٨٩

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٤ / ١٧٣

(٣) تفسير السعدي ٩٧٢

والنهي عن المنكر هم خواص المؤمنين، ولهذا قال تعالى عنهم: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالمطلوب، الناجون من المرهوب. اهـ (١)

وقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

قال الإمام الطبري رحمه الله: هؤلاء الذين هذه صفتهم، الذين سيرحمهم الله، فينقذهم من عذابه، ويدخلهم جنته. اهـ (٢)

وقوله تعالى: في نعت المؤمنين الذين اشترى منهم أنفسهم وأموالهم: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْعَبِيدُونَ الْأَحْمِدُونَ الْأَسْبِخُونَ الرَّكْعُونَ السَّجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَفِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢]

وقوله تعالى: في وصف من يستحق نصره وتأييده: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الذين إن مكنتهم في الأرض أقاموا الصلوة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور] [الحج: ٤٠-٤١]

قال السعدي رحمه الله: ثم ذكر علامة من ينصره، وبها يعرف، أن من ادعى أنه ينصر الله وينصر دينه، ولم يتصف بهذا الوصف، فهو كاذب. اهـ (٣)

وقد حضنا رسول الله ﷺ على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: فجعل ثواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثواب الصدقة.

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تبشّمك في وجه أخيك صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة، وإماطتك

(١) تفسير السعدي ١٤٢

(٢) تفسير الطبري ١٤ / ٣٤٧

(٣) تفسير السعدي ص ٥٤٠

الأذى والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة»^(١).

وجعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سهمان من ثمانية أسهم من الإسلام:

عن حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «الإسلام ثمانية أسهم: الإسلام سهم، والصلاة سهم، والزكاة سهم، والصوم سهم، وحج البيت سهم، والأمر بالمعروف سهم، والنهي عن المنكر سهم، والجهاد في سبيل الله سهم، وقد خاب من لا سهم له»^(٢).

وهو السفينة التي تنجينا من النار يوم القيامة،

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ ماذا ينجي العبد من النار؟ قال: «الإيمان بالله»، قلت يا نبي الله مع الإيمان عمل؟ قال: «أن ترضخ مما خولك الله وترضخ مما رزقك الله»، قلت يا نبي الله فإن كان فقيراً لا يجد ما يرضخ، قال: «يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر»، قلت: إن كان لا يستطيع أن يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر، قال: «فليعن الأخرق»، قلت: يا رسول الله، أرأيت إن كان لا يحسن أن يصنع، قال: «فليعن مظلوماً»، قلت: يا نبي الله، أرأيت إن كان ضعيفاً لا يستطيع أن يُعين مظلوماً، قال: «ما تريد أن تترك لصاحبك من خير ليمسك أذاه عن الناس»، قلت: يا رسول الله، أرأيت إن فعل هذا يدخله الجنة؟ قال: «ما من عبد مؤمن يصيب خصلة من هذه الخصال إلا أخذت بيده حتى تدخله الجنة»^(٣).

قال ابن القيم رحمته الله: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه، ووصف به هذه الأمة، وفضلها لأجله على سائر الأمم التي أخرجت للناس، وهذا واجب على كل مسلم قادر، وهو فرض كفاية، ويصير فرض عين على القادر الذي لم يقم به غيره من ذوي الولاية والسلطان، فعليهم من الوجوب ما ليس

(١) حسن: كما قال الألباني في صحيح الترغيب (٢٣٢١) والحديث أخرجه الترمذي (١٩٥٦) وابن حبان (٥٢٩)

(٢) حسن لغيره: كما قال الألباني في صحيح الترغيب (٧٤١) والحديث أخرجه البزار (٢٩٢٧)

(٣) حسن صحيح: كما قال الألباني في صحيح الترغيب (٨٧٦) والحديث رواه الطبراني (١٦٥٠) والبيهقي

في شعب الإيمان (٣٣٢٨)

على غيرهم، فإن مناط الوجوب: هو القدرة، فيجب على القادر ما لا يجب على العاجز. قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] وقال النبي ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»^(١) اهـ^(٢)

وقال العلامة حمود التويجري رحمه الله: والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أوجب الأعمال وأهم أمور الدين، ولا قوام لدين الإسلام إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد حكى شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية رحمه الله تعالى اتفاق أئمة المسلمين على قتال الطائفة الممتنعة إذا امتنعوا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. اهـ^(٣)

وقال أيضاً: وفي القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الفضائل الكثيرة، وتحصيل المصالح العامة والخاصة، ودرء المفاسد العامة والخاصة ما يدعو كل عاقل إلى الاهتمام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإعانة القائمين بذلك. فمن أعظم فضائل القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أنه وظيفة الرسل وأتباعهم إلى يوم القيامة. فإن الله تعالى إنما أرسل الرسل، وأنزل الكتب للأمر بالمعروف الذي أساسه وأصله التوحيد ومتابعة الرسل، وفروعه الأقوال والأعمال الصالحة. والنهي عن المنكر الذي أساسه وأصله الشرك والبدع، وفروعه أنواع الفسوق والعصيان فبالقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تعلق كلمة الله، ويظهر دينه، ويترك ذلك يضعف الإسلام وأهله ويظهر الباطل وحزبه. اهـ^(٤)

وقال العلامة عبد العزيز الراجحي حفظه الله: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله أصل عظيم من أكد الأصول الإسلامية وأوجبها وألزمها، حتى

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٨) ومسلم (١٣٣٧) من حديث أبي هريرة

(٢) السياسة الشرعية ١٩٩

(٣) القول المحرر في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (ص ٣٠)

(٤) المصدر السابق (ص ٣٣)

ألحقه بعض العلماء بالأركان التي لا يقوم بناء الإسلام إلا عليها، وإنما أرسلت الرسل وأنزلت الكتب للأمر بالمعروف الذي رأسه وأصله التوحيد، وللنهي عن المنكر الذي رأسه وأصله الشرك والعمل لغير الله، وشرع الجهاد لأجل ذلك، وإن كان الجهاد قدرًا زائدًا على مجرد الأمر والنهي. إذ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله يتوقف قيام الدين، فلولا ما قام الإسلام، ولا ظهر دين الله، ولا علت كلمته، ويتوقف أيضًا قيام الدولة الإسلامية واستقامتها وصلاحها على القيام به، كما أن صلاح العباد متوقف على القيام به وبيان ذلك: أن جماع الدين وجميع الولايات هو أمر ونهي، والأمر الذي بعث الله به رسوله هو الأمر بالمعروف والنهي الذي بعث الله به رسوله هو النهي عن المنكر، وبهذا نعت الله النبي والمؤمنين فقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [التوبة: ٧١] وجميع الولايات كولاية الحكم، وولاية الحرب، وولاية المال، وولاية الحسبة، وغيرها، إنما مقصودها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وولي الأمر إنما نُصِّب ليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وهذا هو مقصود الولاية، ولهذا يجب على كل ولي أمر أن يستعين بأهل الصدق والعدل، فإن تعذر ذلك استعان بالمثل فالأمثل بل إن صلاح العباد جميعهم يكون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ إن صلاح العباد ومعاشرتهم في طاعة الله ورسوله، ولا يتم ذلك إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبه صارت هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس كما قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠] ولا يرى تركه والمداينة فيه إلا من أضاع حظه ونصيبه من العلم والإيمان، فما أَجَلَ هذا الأصل وما أَعْظَمَهُ وأخطر شأنه في الإسلام . اهـ^(١)

(١) القول البين الأظهر في الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (ص ١٢) وما بعدها

عقوبة ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

اعلم وفقك الله أن رسول الله ﷺ قد حذرنا من عاقبة ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من رجل يكون في قوم يعمل فيهم بالمعاصي، يقدرون على أن يغيروا عليه ولا يغيرون، إلا أصابهم الله منه بعقاب قبل أن يموتوا»^(١).

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: "يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده»^(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل علي النبي ﷺ فعرفت في وجهه أن قد حضره شيء، فتوضأ وما كلم أحداً، فلصقت بالحجرة أستمع ما يقول، فقع على المنبر فحمد الله وأثنى عليه، وقال: «يا أيها الناس إن الله يقول لكم: مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر، قبل أن تدعوا فلا أجيب لكم، وتسألوني فلا أعطيكم، وتستنصروني فلا أنصركم، فما زاد عليهن حتى نزل»^(٣).

(١) حسن لغيره: كما قال الألباني في صحيح الترغيب (٢٣١٦) وصحيح أبي داود (٤٣٣٩)

(٢) إسناده صحيح: أخرجه أبو داود (٤٣٣٨)، والترمذي (٢١٦٨)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١١٥٧)، وابن ماجه (٤٠٠٥)، وأحمد (٣٠) باختلاف يسير

(٣) حسن لغيره: كما قال الألباني في صحيح الترغيب (٢٣٢٥) والحديث أخرجه ابن ماجه (٤٠٠٤) مختصراً، وأحمد (٢٥٢٥٥) وابن حبان (٢٩٠)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٦٦٦٥) باختلاف يسير، وصححه النووي في الإذكار (٤١٢) وابن باز كما في مجموع فتاوى ابن باز (٥١٣/٢٧) والألباني في صحيح الجامع (١٩٧٣) وصحيح الترغيب (٢٣١٧)

عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يأتيه وينهى عن المنكر ويأتيه

وأما من يأمر بالمعروف ولا يفعله، وينهى عن المنكر ثم يأتيه فقد شددت له العقوبة فعلى قدر ما عظم قدر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعظم خطر من يفعل عكس ذلك، فقد شدد العقاب على من يخالف قوله فعله.

عن أسامة بن زيد رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أفتابه، فيدور بها كما يدور الحمار برحاه، فتجتمع أهل النار عليه فيقولون: يا فلان ما شأنك ألسنت كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن الشر وآتيه»^(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مررت ليلة أُسري بي على قوم تُقرض شفاههم بمقاريض من نار، كلما قُرِضت عادت، فقلت: يا جبريل! من هؤلاء؟ قال: خطباء من أمتك، يقولون ما لا يفعلون»^(٢).

وفي رواية: «أتيت على سماء الدنيا ليلة أُسري بي فرأيت فيها رجالاً تُقَطَّعُ ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من نار فقلت: يا جبريل ما هؤلاء؟ قال: هؤلاء خطباء من أمتك»^(٣).

وعن جندب بن عبد الله الأزدي رضي الله عنه صاحب رسول الله ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «مثل الذي يعلم الناس الخير وينسى نفسه، كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه»^(٤).

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٧) ومسلم (٢٩٨٩)

(٢) صحيح لغيره: كما قال الألباني في صحيح الترغيب (٢٣٢٧) والحديث أخرجه أحمد (١٣٤٢١) والبخاري (٧٢٣١) وأبو يعلى (٣٩٩٢)

(٣) صحيح: كما قال الوادعي في الصحيح المسند (٧٧/١) والحديث أخرجه أحمد (١٣٤٤٥) بنحوه، وأبو يعلى (٤١٦٠) واللفظ له

(٤) صحيح: كما قال الألباني في صحيح الترغيب (١٣٠) و السلسلة الصحيحة (١١٣٣/٧) والحديث أخرجه ابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢٣١٤) والطبراني (١٦٥/٢) (١٦٨١) باختلاف يسير، وأبو الشيخ في أمثال الحديث (٢٧٦)

الفصل الخامس: قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾

بعد أن أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالعفو عَمَّنْ أَسَاءَ، وبالأمر بالعرف والإحسان، ختم التوجيه بالأمر الثالث الذي يُكْمِلُ المنظومة الأخلاقية:

الإعراض في اللغة: الميل والانصراف بوجهٍ أو بدنٍ أو قلب، ومنه قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ﴾ [النمل: ٤٦].

أما الجاهلون، فهم الذين يغلب عليهم الجهلُ في القول والعمل، لا يدركون قدر الكلمة ولا عاقبة الفعل، فتصدر منهم الحماقة والسفاهة. فالمعنى أن على المؤمن أن يترفع عن مجاراة الجاهل، لأن الرد على الجاهل بجهلٍ آخر لا يولد إلا مزيداً من الجهل.



أقوال العلماء في معنى الإعراض

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ: وأما قوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ فإنه أمر من الله تعالى نبيه ﷺ أن يعرض عمن جهل. وذلك وإن كان أمراً من الله نبيه، فإنه تأديب منه عز ذكره لخلقه باحتمال من ظلمهم أو اعتدى عليهم، لا بالإعراض عمن جهل الواجب عليه من حق الله، ولا بالصفح عمن كفر بالله وجهل وحادنيته، وهو للمسلمين حَرْبٌ. ^(١)

وقال النسفي رَحِمَهُ اللهُ: وقوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾: هو كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣] ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]، وهو تحمُّل الأذى، والعفو عمن جنى، والحلم عمن جفا. ^(٢)

وقال ابن العربي رَحِمَهُ اللهُ: وقوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] تناول جانب الصفح بالصبر الذي به يتأتى للعبد كل مراد في نفسه وغيره، ولو شرحنا ذلك على التفصيل لكان أسفاراً. ^(٣)

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: وفي قوله (وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) الحض على التعلق بالعلم، والإعراض عن أهل الظلم، والتنزه عن منازعة السفهاء، ومساواة الجهلة الأغبياء، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة والأفعال الرشيدة. ^(٤)

وقال رَحِمَهُ اللهُ: قوله تعالى: (وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) أي إذا أقمت عليهم الحجة وأمرتهم بالمعروف فجهلوا عليك فأعرض عنهم، صيانة له عليهم ورفعاً لقدره عن مجاوبتهم. وهذا وإن كان خطاباً لنبيه عليه السلام فهو تأديب لجميع خلقه. وقال ابن زيد وعطاء: هي منسوخة بآية السيف. وقال مجاهد وقتادة: هي محكمة، وهو

(١) تفسير الطبري (١٣ / ٣٣٢)

(٢) التيسير في التفسير (٧ / ١٠٦)

(٣) أحكام القرآن لابن العربي (٢ / ٣٦٣)

(٤) تفسير القرطبي = الجامع لأحكام القرآن (٧ / ٣٤٤)

الصحيح لما رواه البخاري عن عبد الله بن عباس قال: قدم عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس بن حصن، وكان من النفر الذين يدينهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته، كهولا كانوا أو شبانا. فقال عيينة لابن أخيه: يا بن أخي، هل لك وجه عند هذا الأمير، فتستأذن لي عليه. قال سأستأذن لك عليه، فاستأذن لعيينة. فلما دخل قال: يا بن الخطاب، والله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل! قال: فغضب عمر حتى هم بأن يقع به. فقال الحر، يا أمير المؤمنين، إن الله قال لنبيه عليه السلام (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) وإن هذا من الجاهلين. فوالله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافا عند كتاب الله عز وجل. ^(١) قلت: فاستعمال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لهذه الآية واستدلال الحر بها يدل على أنها محكمة لا منسوخة. ^(٢)

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: ليس المرادُ به إِعْرَاضُهُ عَمَّنْ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ فَلَا يَعْلَمُهُ وَلَا يَرشُدُهُ، وإنما المرادُ إِعْرَاضُهُ عَنِ جَهْلٍ مِنْ جَهْلٍ عَلَيْهِ مِنْهُمْ فَلَا يَقَابِلُهُ وَلَا يَعَاتِبُهُ. ^(٣)

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: يعني إِذَا تَسَفَّهَ عَلَيْكَ الْجَاهِلُ فَلَا تُقَابِلْهُ بِالسَّفْهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿خَاطَبُهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]. وعلى هذا فليست بمنسوخة، بل يُعْرَضُ عَنْهُ مَعَ إِقَامَةِ حَقِّ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَلَا يَنْتَقِمُ لِنَفْسِهِ. ^(٤)

وقال الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ: أي: إِذَا أَقَمْتَ الْحُجَّةَ فِي أَمْرِهِمْ بِالْمَعْرُوفِ فَلَمْ يَفْعَلُوا، فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَلَا تَمَارَهُمْ، وَلَا تَسَافَهُمْ مَكَافَأَةً لِمَا يَصْدُرُ مِنْهُمْ مِنَ الْمَرَاءِ وَالسَّفَاهَةِ. ^(٥)

(١) رواه البخاري (٤٣٦٦)

(٢) تفسير القرطبي = الجامع لأحكام القرآن (٧ / ٣٤٦)

(٣) مفتاح دار السعادة (١ / ٢٧٦)

(٤) مدارج السالكين (٣ / ٢٧)

(٥) فتح القدير (٢ / ٣١٨)

وقال ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: وأما قوله: (وأعرض عن الجاهلين) فالمعنى: أن من جهل عليك وتناول عليك فأعرض عنه لاسيما إذا كان إعراضك ليس ذلا وخنوعا. مثل عمر بن الخطاب إعراضه ليس ذلا ولا خنوعا، فهو قادر على أن يبطش بالرجل الذي تكلم، لكن امتثل هذا الأمر وأعرض عن الجاهلين. ^(١)

واعلم وفقك الله أن في قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ تربيةً للنفس على ضبط الانفعال وحفظ اللسان وسعة الصدر.

فالإعراض هنا ليس ضعفاً ولا عجزاً، بل هو قوة الحلم وضبط النفس.

والإعراض زينة الحكماء وسمة العقلاء.

وقد كان النبي ﷺ لا يواجه الجاهل بجهل، بل بالسكينة والوقار، حتى قال الله تعالى في وصف عباده المؤمنين: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

وقد دلت الأدلة على مشروعية التنطيش لأهل السفه والطيش.

قال سبحانه: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ: ولما كان لا بد من أذية الجاهل؛ أمر الله تعالى أن يقابل الجاهل بالإعراض عنه وعدم مقابلته بجهله؛ فمن آذاك بقوله أو فعله؛ لا تؤذه، ومن حرّمك لا تحرّمه، ومن قطعك فصّله، ومن ظلمك فاعدل فيه.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: وفي قوله وأعرض عن الجاهلين الحض على التعلق بالعلم، والإعراض عن أهل الظلم، والتنزه عن منازعة السفهاء، ومساواة الجهلة الأغبياء. ^(٢)

وقال سبحانه واصفًا عباده الصالحين ومادحًا لهم: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]

(١) شرح رياض الصالحين لابن عثيمين (١/ ٢٧٨)

(٢) تفسير القرطبي (٧/ ٣٤٤)

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: وقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أي: إذا سفه عليهم الجاهل بالقول السيء لم يقابلوهم عليه بمثله، بل يعفون ويصفحون ولا يقولون إلا خيراً، كما كان رسول الله ﷺ لا تزيده شدة الجاهل عليه إلا حِلْماً. ^(١)

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ﴾؛ أي: خطاب جهل؛ بدليل إضافة الفعل وإسناده لهذا الوصف، ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾؛ أي: خاطبوهم خطاباً يسلمون فيه من الإثم، ويسلمون من مقابلة الجاهل بجهله، وهذا مدح لهم بالحلم الكثير ومقابلة المسيء بالإحسان والعفو عن الجاهل ورزاقه العقل الذي أوصاهم إلى هذه الحال.

وقال سبحانه في سياق مدحه لعباده المؤمنين أيضاً: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [الفصل: ٥٥]

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ﴾: من جاهل خاطبهم به، ﴿قَالُوا﴾: مقالة عباد الرحمن أولي الألباب: ﴿لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾؛ أي: كلٌ سيجازي بعمله الذي عمله وحده، ليس عليه من وزر غيره شيء، ولزم من ذلك أنهم يتبرؤون مما عليه الجاهلون من اللغو والباطل والكلام الذي لا فائدة فيه. ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: لا تسمعون منا إلا الخير، ولا نخاطبكم بمقتضى جهلكم؛ فإنكم وإن رضيتم لأنفسكم هذا المرتع اللئيم؛ فإننا ننزّه أنفسنا عنه ونصونها عن الخوض فيه، ﴿لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾: من كل وجه. ^(٢)

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ أي: لا يخالطون أهله ولا يعاشرهم، بل كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]

﴿وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ أي: إذا سفه

(١) تفسير ابن كثير (٥ / ٦٠٥)

(٢) تفسير السعدي (ص ٦٢٠)

عليهم سفيهه وكلمهم بما لا يليق بهم الجواب عنه، أعرضوا عنه ولم يقابلوه بمثله من الكلام القبيح، ولا يصدر عنهم إلا كلام طيب، ولهذا قال عنهم: **﴿إِنَّهُمْ قَالُوا: ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾﴾** أي: لا نريد طريق الجاهلين ولا نحبها. (١)

والإعراض عن الجاهلين من صفات المؤمنين، وهو أسلوب نبوي نبيل:

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما كان يوم حنين أثر النبي ﷺ أناسا في القسمة، فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطى عيينة مثل ذلك، وأعطى أناسا من أشراف العرب فآثرهم يومئذ في القسمة، قال رجل: والله إن هذه القسمة ما عدل فيها، وما أريد بها وجه الله! فقلت: والله لأخبرن النبي ﷺ، فأتيته فأخبرته، فقال: «فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله؟! رحم الله موسى قد أؤذي بأكثر من هذا فصبر!». (٢)

وقد كان أنبياء الله ورسله أكثر الناس مراعاة لأحوال الناس وصبرا عليهم، واحتمالا لأذاهم، وإعراضا عن سفيههم وجاهلهم؛ لا يقابلون الإساءة بمثلهما، بل يعرضون تارة ويصفحون ويغفرون أخرى، وهمهم الأكبر هداية الناس ودلالتهم على ما يصلح دنياهم وآخرتهم.

فهذا نوح عليه السلام لبث في قومه قرونا يدعوهم لعبادة الله سبحانه، وكان يحتمل جدالهم راجيا لهم السلامة والنجاة من الشرك، ولم يلتفت في جدالهم إلى جهالتهم وسفاهتهم وإساءتهم، بل أعرض عن ذلك وتحمله في سبيل وعظهم ونصحهم.

قال الله تعالى: **﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرْنَكَ إِلَّا**

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٢٩)

(٢) رواه البخاري (٣١٥٠) واللفظ له، ومسلم (١٠٦٢)

بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَزَلَكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِادْيِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعَمَّيْتُ عَلَيْكُمْ أَنْزِلَ مُكُومَهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَاظِمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقَوْمِ لَا تَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَّا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلَقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرْنَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَقَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا يَنْبُوحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَكَثُرَتْ جِدَلَاتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ [هود: ٢٥-٣٤].

ودعا نبي الله إبراهيم عليه السلام أباه وقومه إلى التوحيد ونبذ الشرك برفق وحكمة وتلطف ولين، فما كان من أبيه وقومه إلا أن قابلوه بالإساءة والتهديد والزجر، فلم يقابل إبراهيم عليه السلام تلك الإساءة إلا بالحلم والصبر.

قال الله تعالى: ﴿وَأَذْكُرِي الْأُكْتَبِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا﴾ ﴿١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَبْنَوبَ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٢﴾ يَبْنَوبَ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٣﴾ يَبْنَوبَ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤﴾ يَبْنَوبَ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٥﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَبْنَوبَ إِبْرَاهِيمَ لَنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٦﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٧﴾ وَأَعِزَّنِي لَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ - أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٨﴾ [مريم: ٤١-٤٨].

وهذا نبي من الأنبياء أخبرنا به النبي ﷺ:

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كأني أنظر إلى النبي ﷺ يحكي نبيا من الأنبياء

ضربه قومه فأدموه، فهو يمسح الدم عن وجهه، ويقول: رب اغفر لقومي؛ فإنهم لا يعلمون. (١)

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: فيه ما كانوا عليه صلوات الله وسلامه عليهم من الحلم والتصبر والعفو والشفقة على قومهم ودعائهم لهم بالهداية والغفران وعذرهم في جنائتهم على أنفسهم بأنهم لا يعلمون وهذا النبي المشار إليه من المتقدمين وقد جرى لنبينا ﷺ مثل هذا يوم أحد. (٢)



(١) رواه البخاري (٦٩٢٩) واللفظ له، ومسلم (١٧٩٢).

(٢) شرح النووي على مسلم (١٢ / ١٥٠)

الفصل السادس: الترابط بين العفو والعرف والإعراض

لقد جمعت هذه الآية بين ثلاثة أصول عظيمة من أصول الأخلاق والمعاملة، تُكمل بعضها بعضاً، ولا تستقيم حياة الفرد والمجتمع إلا بها. فهي ليست أوامر متفرقة، بل درجات متصاعدة في تهذيب النفس وضبط التعامل.

وقد بدأت الآية بـ **العفو**، ثم **الأمر بالعرف**، ثم **الإعراض عن الجاهلين**، وهذا ترتيب بديع يحمل دلالة تربوية عميقة:

١. **خذ العفو**: إصلاح القلب، وتربية النفس على الصفح والتجاوز.
٢. **وأمر بالعرف**: إصلاح المجتمع، بدعوة الناس إلى الخير والفضيلة.
٣. **وأعرض عن الجاهلين**: حفظ الدعوة من التعثر، وضبط الانفعال أمام الجدل والسفه.

فالعفو يُصلح العلاقة مع المسيء، والعرف يُصلح العلاقة مع المحسن، والإعراض يُصلح الموقف مع الجاهل.

ومن جمع الثلاث، فقد جمع أصول الأخلاق كلها.

وهذه القيم ليست منفصلة، بل بينها تلازم دقيق:

- **العفو** بدون **عرف** قد يتحول إلى سلبية.
 - **الأمر بالعرف** بدون **عفو** قد يتحول إلى قسوة.
 - **الإعراض عن الجاهلين** بدون **عرف** و**عفو** قد يكون تكبراً لا حكمة.
- فجاءت الآية لتوازن بين اللين والحزم، وبين الدعوة والحلم، وبين الإصلاح والسمو الأخلاقي.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: وقد جمع الله له مكارم الأخلاق في قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] قال جعفر بن محمد: أمر الله نبيه ﷺ بمكارم الأخلاق. وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية (١) (٢).

وقال السعدي رَحِمَهُ اللهُ: هذه الآية جامعة لحسن الخلق مع الناس، وما ينبغي في معاملتهم. (٣)

واعلم وفقك الله أن المقصد التربوي من هذه الآية أن يعيش المؤمن في الناس بقلبٍ رحيمٍ ولسانٍ حكيمٍ وعقلٍ حليمٍ.

فهي ترسم منهجاً للتعامل مع مختلف طبقات البشر:

- مع **المسيء**: بالعفو.
 - ومع **المطيع**: بالأمر بالمعروف.
 - ومع **الجاهل**: بالإعراض والحلم.
- وهكذا يكون المؤمن داعيةً في سلوكه قبل لسانه، يجمع بين الحزم والرحمة، والصفح والدعوة، والصمت الحكيم عند الجهل. ومن تأمل في واقع الدعوة، وجد أن كثيراً من الخلافات والانقسامات سببها غياب هذه الثلاثية القرآنية.

فمن لم يتعلم **العفو** لم يملك الصدر الواسع للناس، ومن لم يألف **الأمر بالعرف** لم يعرف كيف يُوجّه بالرفق، ومن لم يُجد **الإعراض عن الجاهلين** ضاع في الجدل وأضاع وقته.

(١) ذكره جماعة من المفسرين بدون سند.

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٢٩٠)

(٣) تفسير السعدي (٣١٣)

ولذلك كانت هذه الآية ميزاناً للدعاة والمربين والمصلحين في كل زمان، وهي أقرب ما تكون إلى **منهاج التعامل القرآني مع الخلق**.
 فحين يعيش الإنسان بهذه المعاني الثلاثة، يصبح وجوده **نوراً وهدى ورحمة**، كما كان نبينا ﷺ، الذي جسّد العفو في العفو عن قريش، وجسّد العرف في دعوته بالحكمة، وجسّد الإعراض في صمته عن الجاهلين.
 فمن أراد أن يكون من أهل الدعوة والخلق، فليجعل هذه الآية **دستور حياته**، ومفتاح تعامله مع الناس.



الخاتمة

أخي القارئ الكريم، بعد التأمل في قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ يتبين أن هذه الآية ليست مجرد وصايا أخلاقية، بل **منهاج حياة** ومشروع تربية متكامل، يوجه المؤمن كيف يتعامل مع الخلق بحكمة ورحمة وعدل.

أولاً: نتائج البحث

١. الآية جامعة لأصول الأخلاق كلها؛ فهي تجمع بين العفو عن المسيء، والإحسان إلى المحسن، والحلم عند الجاهل، وهذه الأركان الثلاثة هي لبّ مكارم الأخلاق.
٢. **العفو في الآية ليس ضعفاً**، بل هو قوة الحلم وضبط النفس، وهو سبب لنيل العزة والرفعة كما قال ﷺ: «ما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً»^(١).
٣. **الأمر بالعرف** دعوة إلى نشر الخير في المجتمع، بأسلوب رقيق حكيم، لأن المعروف لا يؤمر به بالغلظة، بل بالرحمة التي تفتح القلوب.
٤. **الإعراض عن الجاهلين** تربية للنفس على السموّ، ودرسٌ في فنّ التعامل مع الاستفزاز والجدال، ليبقى المؤمن مشغولاً بالإصلاح لا بالخصام.
٥. **إن الترتيب في الآية يرسم منهجاً تربوياً متصاعداً**:
العفو: تهذيب للنفس. العرف: تفعيل للدعوة. **الإعراض**: حفظ للكرامة.
٦. الآية نزلت لتكون ميثاقاً دائماً للدعاة والمربين، تعلمهم أن القلوب تُفتح بالعفو، والعقول تُهذب بالمعروف، والخصومات تُطفأ بالإعراض.

ثانياً: التوصيات والتطبيقات المعاصرة

١. **في الدعوة والإصلاح**: على الداعية أن يتعامل مع الناس بما تحتمله عقولهم، لا بما يتمناه هو منهم؛ فليأخذ بالعفو، ويأمر بالعرف، ويعرض عن الجاهل، كما أمر الله نبيه ﷺ.
٢. **في الأسرة**: ينبغي أن يكون العفو أساس العلاقة بين الزوجين والأهل والأبناء،

(١) رواه مسلم (٢٥٨٨) من حديث عائشة رضِيَ اللهُ عنها

لأن الصفح يحفظ المودة، والتغافل يجلب الطمأنينة.

٣. **في المجتمع والعمل:** تطبيق العرف في التعامل هو احترام الأخلاق العامة والتقاليد الحسنة، فيكون الموظف أو المسؤول قدوة في اللين والعدل والإحسان.

٤. **في وسائل التواصل:** أحوج ما نكون إلى الإعراض عن الجاهلين في زمنٍ كثر فيه اللغو والجدال؛ فالصمت في وجه السفه عبادة، والإعراض أدبٌ قرآنيٌّ يُعَبِّرُ عن وعيٍ ونضجٍ.

٥. **في التربية والتعليم:** من أعظم ما يُعَلِّم للطلاب والمربين: كيف يضبطون غضبهم، ويقابلون الإساءة بالحكمة، ويتعاملون مع الناس بالعمو والرفق.

ثالثاً: خلاصة القول:

إن آية العفو والعرف والإعراض تمثل خريطة أخلاقية ربانية، متى تمسك بها المسلم صار محبباً محبوباً، نافعا لنفسه ولغيره، عامراً قلبه بالرحمة والعقل والحكمة. ومن سار على هديها عاش مطمئناً، ودعا إلى الله بخلقه قبل قوله، وبحكمه قبل حجته.

قال سبحانه: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، وقال سبحانه: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: ٣٤].

نسأل الله تعالى أن يرزقنا صدق الاتباع، وحسن الخلق، وأن يجعلنا من الذين يأخذون العفو، ويأمرون بالعرف، ويعرضون عن الجاهلين، وأن يُصلح بنا القلوب، ويُهدي بنا الخلق، إنه وليّ ذلك والقادر عليه.

وصلّى الله وسلّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

كان الفراغ منها ليلة الجمعة ١٦ جمادى الأولى ١٤٤٧هـ

بمحل الإقامة بالرياض عاصمة بلاد التوحيد

المملكة العربية السعودية

حرسها الله وسائر بلاد المسلمين



فهرس الموضوعات



- ٣ تقديم فضيلة الشيخ أبى عبد الله فيصل بن عبده قائد الحاشدي
- ٤ المقدمة
- ٦ أهمية الأخلاق في الإسلام

الفصل الأول

- ١٠ أقوال العلماء في الآية ومعناها الجامع
- ١٤ هل الآية منسوخة أم محكمة

الفصل الثاني

- ١٦ ما ذكر في سبب نزول هذه الآية وما ورد فيها

الفصل الثالث

- ٢٠ معنى قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾
- ٢٥ فضل العفو والصفح
- ٣٢ نماذج من عفو النبي ﷺ
- ٣٥ نماذج من عفو الأنبياء عليهم السلام
- ٣٨ نماذج من عفو الصحابة رضي الله عنهم
- ٣٩ شروط حصول العافي للأجر
- ٤٣ أقسام العفو

- ٤٤ هل العفو والمسامحة أفضل أو أخذ الحق؟
- ٤٥ فضل التيسير وذم المشقة
- ٤٧ بيان ما كان عليه النبي ﷺ من الرفق واللين

الفصل الرابع

- ٤٨ قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾
- ٥١ فضل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ووجوب ذلك
- ٥٦ عقوبة ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
- ٥٧ عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يأتيه وينهى عن المنكر ويأتيه

الفصل الخامس

- ٥٨ قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾
- ٥٩ أقوال العلماء في معنى الإعراض

الفصل السادس

- ٦٦ الترابط بين العفو والعرف والإعراض
- ٦٩ الخاتمة
- ٧١ فهرس الموضوعات

صدر حديثاً للمؤلف



عدن - الشيخ عثمان جولة القاهرة - خلف فندق الريان
 +٩٦٧ ٧٣٦٩٠١٨٢٤ - +٩٦٧ ٧٧٤٤٢٧٥٧٢
 عدن - الشيخ عثمان جولة القاهرة - خلف محطة النهدي
 +٩٦٧ ٧٧٧٠١٤٥٢٢
 حضرموت الحامي - جوار مسجد أنور - الشارع الشرقي من النادي
 +٩٦٧ ٧٧٧٣٤٩٥٢٣ - +٩٦٧ ٥٣٤١٥٩٨
 حضرموت سينون شحوح - مقابل مسجد إبراهيم - ومدرسة شحوح للبنين
 +٩٦٧ ٧٨٣٢٤٦٥١٣
 alshafibooks@gmail.com

تأليف الإمام الشافعي
 للطباعة والنشر والتوزيع
 اليمن - عدن